منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
Editions Difaf

هيفاء بيطار

الشحاذة

رواية

مكتبة نوميديا 43
Telegram@ Numidia_Library

طبع في لبنان

الشحاذة

رواية

هيفاء بيطار

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-02-1531-3

جميع الحقوق محفوظة

دار الأمان
الرباط

4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions Elikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

يراودها الانتحار، لا تعرف متى بدأت هذه الرغبة تدغدغ أفكارها، تحسها تحفر في تلافيف دماغها كما تحفر دودة الخشب في الخشب، تشعر أنها تُخفي سرًّا "خطيرًا" عن كلِّ مَن حولها، وهو رغبتها في الانتحار، وتتخيل نفسها مسجاةً في تابوت.

تشعر أن تلك الرغبة تتشرش في روحها وتقوى مع الزمن، لدرجةٍ لا تستطيع مقاومتها إلا بالنوم بمساعدة أطنان متنوعة من الحبوب المهدئة والمنومة التي كانت حريصةً على اقتنائها أكثر من حرصها على شراء الخبز أو الماء؛ لأن تلك الأدوية صارت وحدَها سندَها في الحياة بعد أن فقدت ثقتها بإمكانية أن يدعمها صديق أو صديقة.

لم تكن تعتب عليهم أبدًا بل تعذرهم؛ فلكلٍّ منهم مأساته، وحين يلتقون في زيارات متباعدة فإن الحزن والوجوم والشكوى ترشح من وجوههم وتتجسد في أحاديثهم، يراودها الانتحار أحيانا بشكل نوب عاصفة تجعل كيانها كقشة في مهب ريح عاتية.

يجفُّ حلقها، ويتسرع قلبها، وتسرع إلى درجها الصغير تفتحه بأصابع مُرتعشة، وتبتلع دفعةً واحدةً كميةً كبيرةً من الحبوب المنوّمة والمهدئة، ثم تنبطح على فراشها مرتعدةً من سطوة تلك الفكرة الشيطانية: الانتحار.

تنتظر بصبر فارغ مفعول الأدوية وتمرّ في خيالها وجوه كثيرة لأصدقاء وأقارب انقطعت علاقتها بهم منذ زمن، تحديدًا منذ بداية الثورة السورية، لكن الوجه الوحيد الذي تتشبث به هو وجه ابنتها التي تناديها دومًا بـ «روح روحي»، تتخيل كم ستُسبب لها الألم والخزي فيما لو انتحرت، وكيف سيتحلق حولها المُعزُّون يواسونها بخجل على مصابها، وفي أعماقهم يشفقون عليها لأن أمها انتحرت، ثم تطفو في خيالها صور وجوه شامتة بانتحارها، ثمة من سيفرح لموتها؛ فالانتحار هزيمة الهزائم.

تعرف بقرارة نفسها أنها لن تنتحر، وأنها ستتحمل تلك الأيام القاسية.. حين يبدأ يومها بإحساس طاغٍ بالضيق، وجسدها مهدود القُوَى رغم أنها نامت بعمق ساعات طويلة، أحيانًا تبقى في فراشها وتبتلع المزيد من الحبوب المنومة والمهدئة وتتكور كجنين من الألم بانتظار أن تغرق في رحمة النوم، فالنوم بالنسبة لها هو الرحمة الوحيدة المُتبقية في هذا العالم، تحديدًا في سوريا وطنها الحبيب الذي اجتمع العالم على تسميته بمأساة القرن.

ذات مرةٍ نامت ثلاثة أيام متواصلة، متنقلةً من غيبوبة إلى غيبوبة، لا تكفّ عن ابتلاع الأدوية المنومة لتنسى المآسي اليومية، والموت اليومي، وألم فراقها لابنتها وأسرتها، ثمة صور حين تستعيدها تشعر كأن خنجر اخترق قلبها، حين أوصلت ابنتها إلى مطار رفيق الحريري في بيروت لتسافر للمرة الأولى وحيدةً إلى بريطانيا؛ لتلتحق بمنحة دراسية.

لا يمكنها أن تنسى ذلك اليوم حيث شاع خبر الضربة الجوية الأميركية لسوريا، كان عليها أن تقوّي نفسها أو تتظاهر بالقوة من

أجل وحيدها التي ستسافر إلى بريطانيا وَحدها، لم تسمح لنفسها أن تخاف من الضربة الأميركية رغم أن الآلاف فروا هاربين إلى لبنان خوفًا من تلك الضربة، لكنها كانت تساعد وحيدها في تجهيز حقيبتين كبيرتين: إحداهما رمادية، والأخرى قرمزية.

وكم كانت تفرح حين تطلب منها ابنتها أشياءَ معينةً: ماما هل بإمكانك أن تشتري لي فرشاة أسنان، ودواء بانادول، ولاصق للجروح؟.. يتقافز الفرح في قلبها لمجرد سماعها كلمة «ماما.. ماما.. ماما»، تخزن لحن الصوت والكلمة في روحها وتتغذى عليها أيامًا، تتحول إلى مجرد طاقة قادرة على اختراع المستحيل من أجل ابنتها.

يومها جلستا متجاورتين في المقعد الخلفي للسيارة التي ستقلهما إلى بيروت، كانت عاجزةً عن السيطرة على انفعالاتها، ومن وقت لآخر كانت تبتلع دون أن يلحظ أحد ليكزوميل (الدواء المضاد للقلق).. كانت تسميه (الدواء الذي يمنعك من البكاء)؛ إذ تشعر أنها امرأة متخثرة، مكونة من مادة صلبة ولا تستطيع عيناها أن تفرزا الدمع.

عند الحدود السورية اللبنانية كانت مئات السيارات في ازدحام رهيب، الكل خائفٌ وهاربٌ من الضربة الأميريكية لسوريا، ولا تعرف من أين أتتها تلك الشجاعة المتهورة؛ إذ أسرعت إلى مبنى الحدود اللبنانية وطلبت بإلحاح أن تقابل الضابط المسؤول، وفي البداية رفض عنصر الأمن طلبها، لكنه شعر بألمها العميق؛ حيث تأمّلها للحظات فقرأت الشفقة في عينيه، ثم قال لها: لحظة.. انتظري هنا.

ترى أي ألم عميق كان يشع من عينيها حتى أثّر في الشاب وجعلها رغم ازدحام السيارات تقابل الضابط المسؤول.. كان

الضابط رجلاً لبقًا ولطيفًا استمع لقلبها -هكذا أحسّت- وقرأ روحها القلقة المعذبة، رجَتْهُ أن يقدّر ظرفها فهي أم وحيدة مؤتمنة على ابنتها التي ستسافر إلى غير رجعة، قالت له: أرجوك! «اسمح لنا بالمرور»، وبكل بساطة سمح لها داعيًا لها ولابنتها بالتوفيق، عادت ركضًا إلى السيارة، وأبلغت السائق أنها نجحت بمساعيها، وأن باستطاعتهم المرور دون انتظار ست ساعات على الأقل.

تجاوزت السيارة الحدود اللبنانية، وبدا البحر الفسيح قريبًا ومنعشًا بنسائمه، شعرت بغبطة عارمة وأحسَّت أنها لو مدت يدها من النافذة فسيمكنها مداعبة الموج الناعم، كانت تنقل نظرها بين البحر ووجه وحيدتها، يا لجمالها! كم تحبها حبًّا أكبر من سعتها واستطاعتها! حبًّا كونيًّا أزليًّا خالدًا كما تحس!.. كانت تعشق الحياة من خلالها، وتشعر أن عواطفها نحوها تتدفق كنافورة ماء، حتى أن ابنتها صارت تتململ حين تضغط كل برهة على يدها كمن تؤكد حبَّها لها.

هي نفسها كانت مسحورةً من قوة هذا الحب، كأنه الحقيقة الوحيدة في الحياة، إنه حب متأجج دومًا لا يعرف الفتور، ويمدها بطاقاتٍ كبيرة لا تتوقع أنها تملكها، لطالما قالت بينها وبين نفسها: ابنتي أعادت خلقي.

كان صديقها الشاب ينتظرها في بيته، صديقها الرائع الذي اعتقل في السجون السورية لأنه مع الثورة، ولأنه كان ناشطًا على الفيس بوك، ودفع والده مليوني ليرة سورية حتى أطلق سراحه بعد شهرين، وترك سوريا إلى بيروت مع أسرته، كان ودودًا وكريمًا ومحبًّا، وأصرَّ أن يرافقها إلى المطار، وأن تنام في بيته بعد سفر ابنتها،

كما أصر أن تبقى أيامًا في ضيافتهم كي تجد من يواسيها بعد سفر وحيدها..

كانت تشعر كأنها انفصمت إلى امرأتين، امرأة تتفرج على المرأة الأخرى، تأملت مذهولةً كيف تعاون السائق وصديقها على نقل الحقيبتين الثقيلتين من سيارة التاكسي إلى سيارة صديقها، وكيف كانت ابنتها تربت على كتفها وتقبّلها قبلةً خاطفةً من وجنتها بين حينٍ وآخر.

جلستْ في المقعد الخلفي ونظرُها مثبّت على الشعر الكستنائي الغزير والناعم لابنتها التي كانت تجلس بجانب صديقها وتدقق في موعد الطائرة، التي ستحط في مطار صبيحة في إسطنبول لساعتين، ثم تتابع الرحلة إلى لندن.

همس صوت في أذنها: لن تعودي بعد الآن قادرةً على مداعبة هذا الشعر الناعم، دقائق وستغيب.. شعرت بانهيار فظيع في روحها، وعكس ذهنها صورآلاف البيوت في الغوطة ودوما وقرية سلمى تتحول إلى حطام، ولم تفهم لِمَ تجلّى انهيارها النفسي بمشهد البيوت المنهارة من القصف ومن سقوط البراميل المتفجرة؟!

شعرتْ أنها تفقد السيطرة على أعصابها شيئًا فشيئًا وأنها تريد أن تتحول إلى مجرد صرخة مدوية تشق الفراغ وتزلزل الهواء، أجل ما هي إلا المرأة الصرخة، لكن عليها أن تكبت صراخها من أجل ابنتها، عليها أن تبقى متماسكةً حتى اللحظة الأخيرة وبعدها تبكي وتنهار كما تشاء.

لم تنتبه كيف توقفت السيارة فجأة وصوت ابنتها تسألها: ماما، وصلنا. بدت لها كلمة «وصلنا» تفصلها عن الواقع وترتطم بها كأنها

حجارة، ودت لو تسألها: «إلى أين وصلنا؟»، لكنها شاهدت صديقها يُحضر حاملة الحقائب وينقل الحقيبتين: الرمادية، والخمرية إليها.

امتدت يدها خلسة إلى حقيبتها وأخرجت حبة ليكزوتان عارفةً أنها غير قادرة على مواجهة الموقف، كانت الساعة الربعة فجرًا.. رفعت نظرها إلى السماء تتحسس ضوء الفجر الذي سيولد قريبًا، كانت السماء بنفسجية داكنة، وثمة نجوم صغيرة تلتمع فيها، بدت ذاهلة من الكون والخليقة والوجود والموت والحب، إلى هذا الحد اختلطت مشاعرها! ما مناسبة هذه الأسئلة، وما معناها وابنتها ستتركها بعد لحظات؟! كيف عليها أن تتقبل تلك الحقيقة؟

تفرجت المرأة الأخرى على المرأة التي انفصمت عنها فوجدتها ترتمي أرضًا وتبكي بحرقة وتلطم صدرها وتشد شعرها، ثم تتشبث بابنتها وتشدها إلى صدرها كما لو أنها تريد إعادتها إلى أحشائها: لا تتركيني، لا تتركيني؛ فأنت روح روحي.. أرجوك لا تتركيني، لكن دواء الليكزوتان المانع للدموع كما تؤمن جعلها تبتسم ببلاهة وهي تشد على أصابع ابنتها الرشيقة وتقول لها: «الله يكون معك يا روح روحي».

وفجأةً بدأت تثرثر ثرثرةً لا معنى لها، وتحكي عن الأسى والهلع الذي قرأته في وجوه المسافرين والمروعين خوفًا من الضربة الأميركية الجوية على سوريا، كأنها بتلك الثرثرة ستبعد لحظة الفراق، لكن اللحظة آنت وعليها تجرُّع الكأس التي طلب يسوع من الله أن يبعدها عنه إن أمكن، لكن مشيئة الله كانت أن يتجرع يسوع كأس المرارة والألم حتى النهاية..

تحولت ثرثرتها فجأةً إلى لهاث كأنها أصيبت فجأةً بنوبة ربـــو، أحاطتها ابنتها بذراعيها وقبّلتها وهي تقول: باي مامي، انتبهي على حالك.. وجدت نفسها تركع، ثمة قوة مدمرة أجبرتها على الركـــوع وضمت ركبتي ابنتها بين ذراعيها ورغبت أن تذرف دمعةً واحـــدة، انحنت ابنتها ومسحت بحنان على وجهها وقالت: ماما، أرجـــوك لا تُحوِّلي الموقف إلى دراما.

كانت ابنتها فنانة في السيطرة على مشاعرها، شـــعرت أن كـــل جسدها يتحول إلى قلب، الأم مجرد قلب، وحين ضمتها إلى صـــدرها لآخر مرة أحست بنبضات قلبها تطن في أذنيها، ربما ارتفع ضغطها بتأثير الموقف، أو ربما بسبب الحبوب العديدة من الليكزوتان الـــتي تناولتـــها، قبّلت الوجه النضر قبلاتٍ قويةً تسميها (كاسات هوا)، وتأملت مذهولةً ابنتها تعبر الحاجز، تجر بتثاقل الحقيبتين: الرمادية، والخمريـــة؛ وكيـــف حملت كل حقيبة بمفردها ووضعتها على الميزان، ومن برهة إلى أخـــرى كانت تنظر ناحية أمها وترسل لها قبلةً عبر الأثير ثم غابت.

عرفت أن تلك اللقطة سوف تُحفَر في ذاكرتها كالوشـــم، ولم تعد ترى سوى حقيبتين ثقيلتين تجرهما وحيدتها، انهـــارت وبـــدأت تولول: «يا ويلي، سافرت حبيبة قلبـــي»، كان صديقها يواســـيها ويؤكد لها أن أفضل قرار اتخذته ابنتها هو السفر، وأن لا مستقبل في بلد مثل سوريا بلد الاستبداد والموت والقتل والدمار.. أثَّر فيها صدقه وشهامته، وحين جلست بجانبه في السيارة كان شعاع الفجر النحيل يُشرق من جديد على قلب أم ينزف ألمًا، تفاقمت نوبة بكائها لأنهـــا شمت بقايا العطر الذي تستعمله ابنتها: «يااااه».. كيـــف سأقضـــي حياتي من دونك يا حبيبة قلبـــي؟

كان صديقها يحاول مواساتها وتذكيرها أن آلاف الشبان والشابات السوريين هجُّوا من سوريا، وأن المسكين والعاثر الحظ هو الذي بقي في وطن الموت.. أكّد لها أن ابنتها سوف تبني مستقبلا مشرقًا في لندن؛ فالمنحة التي استحقتها بجدارتها ممتازة، وسيكون بإمكانها أن تزورها، وأن تتحدث إليها يوميًّا على السكايب، وتكلمها على الفايبر.

حين وصلت بيت صديقها كانت زوجته اللطيفة والحامل قد أحضرت إليها إفطارًا شهيا وقالت لها وهي تحضنها وتقدم لها مناديلَ ورقيةً لتجفف دموعها: مثل ما ودعت تلاقي.. تعالَيْ لنأكل معًا أنا أُحسّ بجوع، هل كل الحوامل يشعرن بالجوع دومًا؟.. شكرتها على إحساسها بها وكرمها.

وعلى طاولة الإفطار لمحت ملقط الشعر الأبيض لابنتها، فعاودتها نوبة بكاء عاصفة، وتمسكت بالملقط كما لو أنها تتمسك بابنتها، كان شوقها لوحيدتها كالحرق، وأحست أن الحياة كسرتها وأجبرتها على الخنوع والاستسلام، و لم تستطع أن تبتلع لقمةً من الطعام الشهيّ، ولكنها كانت ترشف الشاي حتى شربت ثلاث كؤوس، أكان الشاي الفاتر يُطفئ لظى مشاعرها؟.

لا تفارقها صورة الحقيبتين، وآلمها أنها لم تستطع مساعدة ابنتها في حملهما إلى الميزان، خافت أن تفقد عقلها من شدة انفعالاتها، وكانت كل لحظة تتخيلها: أين ستكون؟ وماذا تفعل في تلك الثانية؟ وكيف ستنتظر وحيدةً في مطار صبيحة في إسطنبول لساعتين؟ كم ستتعب؟ هل ستضطر إلى تناول حبتين من البانادول؟.. وجدت نفسها تُقبّل الملقط البلاستيكي الأبيض، وستحتفظ به مدى الحياة.

لم تعد تشعر بجسدها؛ فهي قلب، قلب أم يتسع للكون كلـه: أين أنت يا روح روحي؟ كيف ستكون حياتي من دونـك؟ مَـن سأنتظر كل يوم عند الساعة الرابعة بعد الظهر عودتها من عملـها، وأنا واقفة بالشرفة أنتظرها ووجهي يتهلل فرحًا؟!!. حـين أجـدك تقودين سيارتك الصغيرة، وأحيانا -وكالأطفال - أصـفق فرحـا بعودتك وأجلس مقابلك وأنت تأكلين بشهية «التبولـة» أكلتـك المفضلة، وتقولين لي: «يسلموا إيديك».. مَن سـأنتظر الآن عنـد الساعة الرابعة يا حبيبة قلبـي؟!

أخذ الألم يُغيّر أشكاله من إحساس طاغٍ بالانهيار والركوع إلى إحساس بوخزات من الألم أشبه بشرر.. أصرّت زوجة صـديقي أن آكل شيئًا لكنني لم أستطع ابتلاع لقمة.. قرأتُ قلقهمـا علـيّ في عيونهما، أعطاني صديقي قرصًا مُنومًا وقال: هيّا، عليكِ أن تنـامي قليلاً.. ضحكت، ضحكت من كل قلبـي، وكدت أقول له إنـني سلفًا تناولت عدة حبوب من الليكزوتان لتحمُّل موقـف الفـراق، لكنني آثرت الاحتفاظ بسرّي كما آثرت الاحتفاظ بسري عن رغبتي في الانتحار فيما بعد.

ابتلعت القرص المنوم قوي المفعول، ووقفت لدقائق بالشرفة؛ حيث كان تمثال مريم العذراء منتصبًا في الفراغ مادّةً يديها إلى السماء وكـأن صدرها يتسع لكل المعذّبين، رجوتُها أن تحفظ ابنتي وتوصلها بالسلامة.

كانت الأشجار تتلألأ بنور الصباح، خارت قواي ودخلتُ في غيبوبة ولم أنتبه سوى ليد حنونة تربت على وجهي وأنا ممـددةً في السرير، كانت زوجة صديقي تُغطيني، ونمت نومًا مؤلمًـا، وصـورة حقيبتين: إحداهما رمادية، والأخرى حمرية؛ لا تفارق خيالي.

كيف استطاعت أن تغفو أربع ساعات؟! يبدو أن الدواء المنوم أعطى مفعوله، لم تستيقظ بشكل طبيعي، بل أيقظتها نوبة بكاء عاصفة.. أخرجت من تحت المخدة ملقط الشعر الأبيض الذي نسيته ابنتها، وأخذت تهذي: «وينك يا غالي؟ وينك يا غالي؟» وشعرت بالذنب كونها غفت بينا هي تنتظر وحيدةً في مطار صبيحة في إسطنبول.

لم تستطع أن تصطنع ابتسامةً، ولم تقدر أن تسيطر على نوبة البكاء التي عصفت بها، وبدا جسدها كله يرتجف، كانت تدرك أنها لا تملك أية حجة أو وسيلة لتهدئة جُرح روحها، وتفكر: كيف سأتابع؟! حياتي ووحيدتي سافرت إلى غير رجعة، وإمكانية لقائي بها ضئيلة؛ لأن معظم الدول الأوروبية لا تعطي فيزا للسوريين. وخجلت من وضعِها.. كيف ستخرج إلى الأصدقاء الذين دعموها وساندوها؟

عليها أن تسيطر على نفسها وتوقف تدفُّق دموعها، وشعرت أن الزمن جرح، مجرد جرح عليها التعايش معه، وتماهى جرحها الشخصي بفراق وحيدتها مع جرح وطن اسمه سوريا، وحاولت جاهدةً أن تستحضر ذكريات مُبهجة رافعة لمعنوياتها، لكزت ذاكرتها وأجبرتها أن تستحضر صور ابنتها في كفاحها الصامت للحصول على منحة مهمة إلى بريطانيا، وكيف كانت تقضي ساعات تدرس وتبحث في الإنترنت، وكيف سافرت مرارا إلى بيروت لتقدم فحوصًا.

وكانت ترافقها في سفرها، وكانا بضيافة أصدقاء رائعين نزحوا من حلب وعاشوا في بيروت بانتظار لجوئهم إلى هولاندا، كانت تشعر أنها تطفو في فراغ وهي تجلس مع أصدقائها الحلبيين النازحين،

وتقارن بين لقاءاتهم في حلب ولقاءاتهم في بيروت.. كنا جميعًا سوريين مُحطمين من الداخل، نجرجر أنفسنا في الحياة، ونحاول أن نخلق الأمل من تربة اليأس.

أجبرت نفسها أن تتذكر فرحة ابنتها حين قُبلت في المنحة، وكيف بدأتا بالتحضير لسفرها، وكيف أصرّت أن تدفع من مالها الخاص ثمن بطاقة الطائرة، وكيف كانت تغضب منها حين تباغتها بهدايا تعتقد أنها تُفرحها وتقول لها: اعتبريها تذكارًا مني؛ فتجيبها ابنتها جوابها المعتاد والذي ترده دومًا: «كيف تشترين هذه الأغراض الغالية ومعظم الشعب السوري يموت من الجوع وينزح!».

كانت شابةً عظيمة تتمتع بعفة النفس، وبأخلاق عالية، وكانت حكيمةً، بل لطالما أدهشتها بحكمتها..

نجحت أخيرًا في كبح عاصفة دموعها، ولكنها شعرت أن عينيها تستمران في إفراز الدمع الذي تبتلعه لداخلها كي يرفد بحيرة الدموع في روحها، كانت تحس تمامًا بتلك البحيرة من الدموع الروحية التي كانت تسكبها على الشهداء وهي تقف متأملةً نضارة الصبا في وجوههم المرتسمة بالأبيض والأسود على أوراق نعواهم، كانت تستسلم لنوب من البكاء متحسرة على شبابهم وعلى زجهم في حرب قذرة لم يستطيعوا الفرار منها، وكانت تتخيل معاناة أهلهم وألمهم.

كانت تشعر بأنها ضيعت شيئًا جوهريًّا في شخصيتها، وأنها لن تعود أبدا كما كانت؛ عليها منذ اللحظة أن تواصل حياتها وحيدةً، وفكرت: أي ألم ستعانيه عند الساعة الرابعة حين كانت تعود ابنتها من عملها!

جلست بين صديقها وزوجته ترشف القهوة ونظرها يسرح في الفضاء ويستقر عند تمثال مريم العذراء في حريصا فاتحةً ذراعيها لأمهات سوريا.. كانت تبذل جهودًا خارقةً كي لا تعاود البكاء، وتقمصَّها شعور بأنها مسكينة وعزلاء، وكأنها وعتْ دفعةً واحدةً معاناة السوريين.

يا إلهي! أنا محطمة من الألم؛ لأن ابنتي سافرت لتحقق مستقبلاً مُشرقًا، ولتكونَ آمنةً بعيدةً عن وطن الرصاص والقتل، فكيف حال الأمهات الثكالى اللاتي دفنَّ أولادَهن، وبعضهن لم يتسلمن حتى جثة أبنائهن، بل أعطوهم ورقةً اسمها «شهادة الوفاة»؟! أدركت أن الشهادة الوحيدة الحقيقية في سوريا هي شهادة الوفاة.

كان صديقها وزوجته في قمة اللطف والإنسانية، وكانا يقرآن روحها؛ لذا أخذَا يحدثانها بلطف آسرٍ بأنها يجب أن تفرح لسفر ابنتها، وأن معظم الأهالي في سوريا يدفعون الملايين ليهرّبوا أولادهم من وطن الموت، وفجأةً قفز صديقها فرحًا وقد تلقّى على هاتفه الخليوي رسالةً من ابنتها بأنها وصلت إلى مطار لندن، وسوف تأخذ القطار إلى سانت أندروز.

هوى قلبها من الفرح والحنين معًا ووجدت نفسها تقول وتُكرّر: «الحمد لله، الحمد لله»، وعصف بها شوق حارق إليها، وتساءلت: ترى كيف سأدعم نفسي وأساعدها كي أمرِّر أيامًا، وشهورًا، وربما سنوات، من دون حبيبة قلبي؟! ثم هبطت عليها سكينة أشبه بالشلل، جفت دموعها تمامًا وتحول داخلها إلى جماد، كما لو أن كل مشاعرها المصطخبة قد تخثرت، وكانت لا ترى مِن كل ما حولها سوى صورة شابة رائعة تسافر وحيدةً في القطار مع حقيبتين ثقيلتين إلى مكان لم تزره يومًا.

وعرفت أن لا مجال إلا الاستسلام للغة العقل البغيضة، وأن تفكر أن مصلحة ابنتها في السفر، وتذكرت كم كانت تخاف عليها حين تتأخر في العودة إلى المنزل، أو حين ينزل صاروخ في اللاذقية، أو تجفل من رشق الرصاص لتشييع الشهداء، أو لأسباب لا تعرفها.. يجب أن تفرح لها؛ لأنها أصبحت آمنةً، وفي بلد مُتحضر.. لكن للقلب منطق يختلف عن منطق العقل بل يناقضه، كانت تشك بقدرتها على التأقلم مع غيابها وترتعد فزعًا من الوحدة التي تفغر فاهها لابتلاعها.

أصرّت أن تعود إلى اللاذقية رغم اعتراض صديقها وزوجته وإصرارهما أن تبقى في ضيافتهما لأيام، لكنها كانت تشعر بلهفة وشغف للعودة لتدخل غرفة ابنتها وتشم ثيابها التي تركت معظمها، وحين مرَّ بها السائق وصعدت وجلست بجانبه وحيدةً أحسَّت أنها فقدت صوابها تمامًا، ووجدت نفسها تهذي بينها وبين نفسها: «أين هي الآن؟ لماذا لا تجلس إلى جانبي؟ هل حقًّا سافرت؟ هل سأدخل البيت ولا أراها؟».

كانت خائفةً من نفسها وهي تعود إلى مدينة بلا قلب، فقد تصحرت مشاعر الناس من هول معاناتهم، وما عاد أحد مستعدًّا أن يدعم الآخر.

رافقها في سفرها إلى اللاذقية امرأتان سوريتان نزحتا من حلب، وكان الحديث كله عن مصائب السوريين وقصص مآسيهم، ومَن استشهد ابنها، ومَن غرق ابنها في البحر، ومَن باعت مصاغها وأثاث بيتها لتتمكن من تهريب ابنها إلى تركيا، ومنها إلى أية دولة أوروبية، شعرت بشيء من التعزية وهي تسمع تلك القصص المأساوية لسوريين.

وكلتا المرأتين تدمَّر بيتها بالكامل في حلب، وكانتا في زيارة لأولادهما في صيدا، أرادت أن تسألهما عن مشاعرهما حين وجدتا حطام بيتهما، لكنها امتنعت، ليس من باب اللباقة، بل لشعورها أنها لن تتحمل جوابهما.

وصلت إلى مدخل الحدود السورية فقرأت لافتةً مكتوبًا عليها: «سوريا بخير!» يا للمرارة التي شعرت بها! كان السائق يتوقف عند الحواجز الكثيرة المتنوعة من أمن عسكري، إلى حواجز الجمارك، إلى حواجز الشبيحة، ويرشو كل عناصر الحواجز.

وما إن أوصلها إلى البيت مع حقيبتها الصغيرة، وملقط الشعر الأبيض لا يفارق يديها، حتى انفجرت ببكاء حارق وهي تصرخ مُنقّلةً نظرَها إلى صور ابنتها الكثيرة بمراحل عمرها المختلفة: وينك يا غالي؟ وينك يا غالي؟ ودخلت غرفتها وتنشقت رائحتها بعمق، يا لتأثير الرائحة! كانت تشعر بوجودها، ولمحت قميص نومها البرتقالي مرميًّا على السرير، فرشَتْه على وسادتها لأيام، وكانت تنام شاعرةً أنها تحضنها.

غيابها أوصلها إلى أعمق أعماقها -هذا ما شعرته بالضبط-، وفجَّر كل منابع الحب في نفسها، وعت أية قوة عظيمة هي الحب، وحين تحدثت إليها لأول مرة على سكايب شعرت أنها ستخترق الشاشة، كان وجهها الصبوح الجميل بمتناولها، وكانت تتخيل أنها تمسح على وجهها براحة يدها، وتمسُد شعرها.. طمأنتها ابنتها أنها بخير وأنها باشرت دوامها في جامعة سانت أندروز.

وحانت الساعة الرابعة بعد الظهر، ساعة الأزمة الكبرى في روحها، كانت تهرب من نفسها، وتهيم في شوارع اللاذقية تتأمل كل

شيء: مختلفَ أنواع البسطات التي تضم أشياء لا لزوم لها، صناديقَ الكرتون الكبيرة التي تحتوي على بسكويت له لون التراب، الأطفالَ المتسولين القذرين وكلمات الذل التي يستجدون بها المال، وبعضهم يكون منطرحًا على الرصيف بجانب علبة علكة أو طبق يحتوي على تفاح مصبوغ بالأحمر متعفن، كانت تشتري أشياء لا لزوم لها موهمةً نفسَها بأنها تعيش حياةً طبيعيةً، بينما تشعر أن أعماقها تتهاوى وتتداعى كما تنهار بيوت سوريا التي تُقصف من كل الأطراف المتنازعة.

ولم تكن تجد عزاءً لها سوى بزيارة الصديقات المُروعات على أبنائهن وهن يحاولن تهريبهم كي لا يتم إلحاقهم بالجيش السوري ليعودوا بعد أيام جثثًا أو بقايا جثث، أو مجرد ورقة تُسمى «شهادة الوفاة».

كانت تعود من رحلة تسكُّعها التي تبدأ الساعة الرابعة بعد الظهر إلى البيت والحنين لابنتها يعتصرها، وغالبا ما كانت تتناول طعامها واقفةً في المطبخ، ولم تفهم كيف كان صوتٌ ينبع من داخلها يُهينها ويقول لها: أنت تأكلين كحيوان.

وكانت تنتظر اللحظة التي تتحدث بها إلى ابنتها على السكايب، كانت تلك الدقائق تتويجًا للفرح الوحيد في حياتها، وبعدها كانت تهرب إلى النوم بمساعدة الدواء المنوم، كان الوحيد الذي يُعينها على تحمُّل وجع الصحو.

***

الترويع

يستحيل أن تعتاد على غياب وحيدتها، أحاطت مخدتها بصورها محتضنةً الصورَ طوال الليل، متعاركةً مع كوابيسها، كانت تحلم بكوابيسَ مرعبةٍ وغريبة، وقرأت أن الآثار الجانبية للدواء المنوم هي الكوابيس.

تستيقظ منهكةَ القوى، وهي تغلي من انفعالات تهدّها هدًّا، تُحسّ أنها امرأة مهترئة من الوحدة والأحزان، تعرف أن من واجبها تجاه نفسها أن تحارب يأسها واكتئابها، لكن دويّ الحياة تحوَّل إلى دويٍّ رصاصٍ وبراميلَ متفجرة، ودمار وخراب وموت ونزوح وغرق للسوريين الفارّين من بلد الموت، تحاول أن تبثّ في نفسها همةً ونشاطًا كي تُكمل يومها بالتي هي أحسن، بأقل قدر من الحزن والحسرة والبكاء.

يؤلمها إحساسها أنها منفردة دومًا بنفسها، لا مُعينَ لها حتى من أصدقائها، تنزلق من فراشها بعد صراع بين شعور يدفعها لتبقى دافئةً جسدَها في الفراش، وبين واجب أن تكون حيةً، وأن تشعر وأن تكتب، فثمة إنسانة تعبدها على الضفة الأخرى من العالم، ثمة شابة تكافح وتشق طريق مستقبلها وحيدةً أيضًا.

ابنتها هي قوتها الوحيدة، وهي وحدها تُرجح كفة التشبث بالحياة لأجلها، تتذكر قولاً لدوستويفسكي: «لو كانت الحقيقة كلها

في كفة والمسيح في الكفة الأخرى لاخترت المسيح»، تحور عبارة دوستويفسكي وتختار ابنتها، عليها أن تصون نفسها لأجل تلك الصبية الرائعة التي تعبدها.

تُحضر قهوة الصباح، تحتاج إلى عدة فناجين من القهوة كي تطرد آثار الدواء المنوم، تجلس مقابل التلفاز تمضغ فطورها الذي لم يتغير منذ سنوات (جبنة حلوم)، تتابع تحديدًا نشرة أخبار تلفزيون الجديد، كارثة تلو كارثة، تفجير تلو تفجير، غرق المئات في البحر، ورؤساء العالم يعقدون اجتماعاتٍ ويُبدون قلقهم لما يجري، وهي وملايين غيرها واثقون أنهم وراء كل المصائب مع أعوانهم حكام البلاد والعباد، يدّعون كاذبين أنهم يحاربون التنظيمات الإرهابية أيضًا.

يطوّقها ضيق فظيع، تشعر به من تشنج حنجرتها وجفاف حلقها، تتخيل نفسها تصرخ بصوت يشرخه الألم مناديةً كل أصدقائها: أرجوكم ساعدوني، أرجوكم تعالوا إليّ. تتركز حواسها في أذنيها لعل الهاتف يرن، وتتفقدها إحدى صديقاتها أو أحد أصدقائها، تؤمن أن الرغبة تستدعي ما ترغب، وبأنه بعد لحظات سوف يرن الهاتف وتتصل بها إحدى الصديقات.

عجنتها المآسي السورية وجعلتها إنسانة مختلفة عما كانت، جعلتها الظروف غير قادرة على التأقلم مع نفسها ومع محيطها، كما لو أنها بحالة هروب دائم من روحها المختنقة بالعذاب، المُختزنة للمآسي، تشعر أن داخلها مقبرة لكل من ماتوا، لكنّ شيئًا واحدًا كان يُعزيها، أن أعماقها لا تزال صادقةً وشفافةً، ولم تنجرف للوهم والضلال كبعض معارفها.

تتذكر صديقةً لها تعيش حالة إنكار لما يحصل، كما لو أن الدنيا بسلام وأمان، تُشعل شموعًا وتصلي طوال الوقت ليسوع المسيح ومريم العذراء، وتؤمن أن الحياة على الأرض مجرد محطة، تتذكر حين زارتها ذات يوم كيف وجدتها في مكتبها تستمع لموعظة لرجل دين على خلفية تراتيل كنسية، ووجهها يعكس راحةً نفسيةً زائفة.

تبادلتا القبل؛ إذ لم تلتقيا منذ زمن بعيد، ربما منذ شهرين؛ فالأزمة السورية جعلت كل إنسان يعيش في شرنقة عزلته، طلبت من صديقتها أن تخفض صوت التلفاز الذي يبث كلام رجل الدين الأشبه بالأفيون، وكيف يصف الآخرة، حيث ستسبح الأرواح في سلام، وجدت نفسها تبادر صديقتها بأن حلب تحترق، وكل يوم يموت مئات المدنيين في حلب.

لم يبدُ أي تأثر على سحنة صديقتها المرتاحة المسترخية القسمات، وقالت لها وابتسامة لا تنتمي إلى الواقع تشع من وجهها: «غير مهم»، وأمسكت شمعةً في يدها وقالت لها: تأملي تلك الشمعة جيدًا، لم تفهم قصدها؛ فالشمعة قصيرة بطول سبابة ومجعدة، بعد أن ذاب الشمع وتحوَّل إلى كتل صغيرة، كانت صديقتها التي اختارت إنكار الواقع تبحلق بها ثم سألتها مستعجلةً جوابها: ألم تلاحظي شيئًا؟! ردت: لا. قالت لها: تأمليها جيدًا، إنها مريم العذراء، فقط خصتني مريم العذراء بالنعمة، وأنا أعيش بسلامٍ روحيٍّ لا يمكنني أن أصفه لك.

كانت عينَا صديقتها تشعان نورًا، تمنت لو تمتلك الجرأة وتشرح لها أن ما تعيشه نوع من الجنون وإنكار الواقع، وأن تلك الشمعة التي تعبدها وتقدسها لا تمت بِصلة إلى مريم العذراء، لكن مشاعرها

وأوهامها تصوران لها ما تريده، تمنت لو تقول لها: إنها تشفق عليها؛ لأنها لم تستطع تحمُّل كل هذا الإجرام في الواقع فهربت إلى راحة الوهم والإيمان الزائف.

لكنها لم تتفوّه بكلمة، شربت قهوتها على عجل وهي تتأمل الأوراق الملتصقة بالجدران، وقد كتبت عليها صديقتها عباراتٍ من كتب أوشو، معبودها أيضًا ومُخلّصها، كانت مبهورةً بأوشو لدرجة أنها اقتنت كل كتبه، وحفظت كلامه على شحم قلبها، كان بدوره يساعدها كي تطفو فوق الواقع وتهرب منه.

ودّعتها وهي تُحسّ بالذهول، وتستعيد نظرات المجنونة التي تؤمن أيضًا بأن المسبحة مضادة للاكتئاب، وأنها كل يومٍ مساءً تُسبّح وهي تتابع برامج قناة الحياة الدينية.. أنهكها تعب الروح، وشعرت بتضاعف كآبتها بعد زيارة تلك الصديقة.

قصدت مقهى رصيف شعبيًّا، تشعر براحة وسط الناس البسطاء الذين لا يملكون شيئًا حيال مآسيهم، ويدخنون الأركيلة كوسيلة وحيدة لتبديد الوقت الثقيل كالرصاص.. اعتادت بدورها على تدخين الأركيلة رغم معرفتها بأضرارها الكثيرة، أعطت النادل بخشيشًا كبيرًا لم يتوقعه؛ فصار في قمة اللطف معها، يقصدها كل دقائق ليسألها إن كانت مستمتعة بالأركيلة، وإن كانت بحاجة إلى تغيير الجمرات..

شعرت براحة تتسلل إلى أطرافها المُتشنجة، باغتتها دموعها تسيل شوقًا إلى ابنتها، كثّفت ذاكرتها ملامح وحيدتها، وشعرت أنها تذوب من لفح الأشواق.

استعرضت بخيالها حياتَها قبل سفر وحيدتها والعجوزين الحبيبين: (أمها، وأبيها) اللذين تجاوزا الثمانين، بل إن والدها على بعد أيام من

عمر التسعين، اضطرا أن يعيشا في فرنسا متنقلَيْن بين بيتَيْ ولدَيْهما.. لا تعرف لِمَ كانت تربط بين شيخوختهما والمأساة السورية؟ كما لو أن المأساة هي سبب انهيارهما الجسدي والأسى الذي يطبع روحهما.

كانا أعزلين ومسكينين في مواجهة الحرب الوحشية، ولم يحبها أحد كما أحباها، كانت تصرخ وتتألم وتشتم أمامهما وهما صامتان يحاولان تهدئتها.. الآن اختفيا -هكذا تشعر- وما عاد بإمكانها أن تشكو هموم روحها أمامهما، ابتلعتهما الغربة بدورهما.

«كم أخسر.. كم أخسر!!»، هذا ما كانت تقوله لنفسها وهي تنفث دخان الأركيلة، غابت ابنتها ووالداها وأصبحت تعاني من غربة إخوتها أكثر فأكثر، لا أحد يدعمها، حتى الأصدقاء تمر أيام وأسابيع ولا يتصلون، فتتجاهل ألم تجاهلهم لها وتتصل بهم واحدًا واحدًا متظاهرةً أنها بحالة نفسية جيدة، يأتيها أصواتهم مُتعبةً، لكل منهم همومه.

صديقتها الأحب إلى قلبها مُروعة من سحب ابنها إلى الجندية، أرادت أن تُسفّره إلى ألمانيا، لكن رفضوا إعطاءه فيزا، فاضطرت إلى التعامل مع مهرب مشهور ليُهرّب ابنها عن طريق إسطنبول، ومنها في قارب بحري إلى اليونان، ثم إلى ألمانيا. كان الشاب برفقة ثُلّة من رفاقه الذين يماثلونه في وضعه ويريدون الفرار من بلد الموت.. «كيف يمكن لكسيح أن يدعم كسيحا!!.. كيف يمكن لجريح الروح أن يدعم جريح الروح مثله!!».. يا للهب الحزن يكمن في أعماقها!!.

تدفع الحساب وتعود إلى بيتها، تركع أمام جهاز التليفون تتوسله أن يرنّ، أن يتفقدها أحد الأصدقاء، أن يتصل أحدٌ ما ويكون الرقم خطأً، لكن لا يصلها إلا رنين الإهمال والغياب، تتخيل أنها

تتصل بكل واحد من أصدقائها وتقول لهم: أنا منـــهارة أرجـــوكم ساعدوني.. وتردد إلى ما لا نهاية كلمة «منهارة»، تخشى فعـــلاً أن تنفذ ما تتخيله، وتتعجب كيف تنتابها الرغبة في إيقـــاظهم في قلـــب الليل، كمن تريد أن توقظهم وتستحضـــرهم إليهـــا وترجـــوهم أن يساعدوها: أنا بحاجة إلى مساعدة، إلى منقذ ومخلّص؛ ما عاد بإمكاني تحمُّل جراح روحي ووحدتي وكل هذا القتل، فأرجوكم ساعدوني.

رغبة مزلزلة تدفعها إلى الاتصال بهم، لكنـــها في نهايـــة أزمـــة روحها تبتلع الدواء المنوم وتنتظر بفارغ الصبر رحمة النـــوم الغـــاصّ بالكوابيس.

واقعٌ وحشيّ القسوة لا مفرَّ منه، وجدتْ نفسها فجأةً امرأةً في منتصف الخمسينيات وحيدةً، بلا أي نـــوع مـــن أنـــواع الـــدفء العاطفي؛ فابنتها الوحيدة في إنكلترا، ووالداها اللذان في أرذل العمر في فرنسا عند إخوتها.. كم كانت تحتقر الشيخوخة! لكنـــها تحـــب والديها كثيرًا، كما لو أن شيخوختهما منفصلة عنهما.

وضع بائس هبط عليهما، أمراض الشيخوخة العديدة أصابتهما: من نقص السمع، إلى نقص النظر، إلى البطء في الحركة، إلى أمراض القلب والمفاصل.. ورغمًا عنها كانت تقارن بين حيويـــة الشـــباب وهزيمة الشيخوخة، وتحس بالخزي حين تعتقد أن الإنسان أفضل لـــه وأكثر كرامةً لو مات قبل أن يهترئ جسمه.

هل كانت مُستميتة للبحث عن عزيمة روحية تقويهـــا؟ يبـــدو ذلك؛ لأنها اكتشفت أنها صارت تخاف من البقاء وحيدةً، أن يبقـــى فمها مُطبقًا طيلة أيام، وأن تفقد همتها على رياضة المشـــي، وحـــتى تنظيف المنزل، تتذكر بأسًى كيف كانت تزرع الشـــوارع بمشـــي

رياضيٌّ سريع وهي تُحسّ بأنفاسها تتسارع لاهثةً لكن سعيدة، وتعود إلى البيت حيث أمها ووالدها بانتظارها، تقول لهما ضاحكةً: لقد أرضيت ضميري. إذ تعتقد أن المشي هو نوع من إرضاء الضمير تجاه الذات.. ثم تستحمّ وتنظف ما يجب تنظيفه في البيت، وبعدها تنطلق بكل نشاطها لزيارة إحدى صديقاتها، أو تُقيم حفلاً متواضعًا في بيتها يضم الأصدقاء.

الآن الحرب خربت حياة كل السوريين، لم يبقَ بيت إلا وأصابه الأذى بطريقةٍ ما، سافرت ابنتها لأن بقاءها في سوريا لم يعد آمنًا، ولأن طموحها يدفعها إلى إكمال دراستها والحصول على الدكتوراه، أما أهلها الذين أصبحوا بحاجة إلى من يعتني بهم وهم في أرذل العمر فقد اتخذ أخواها قرارًا بسفرهم إلى باريس.

لم يبقَ من أسرتها سوى الصُّوَر يكسوها الغبار، وحين تدخل غرفة ابنتها تنكس رأسها شاعرةً بالهزيمة والقهر، وتتمنى لو تبكي.. تحاول أن تجد عزاءً لدى الأهالي الذين هرّبوا أولادهم إلى بلاد الله الشاسعة خوفًا من الموت في الجندية أو تحت التعذيب في المعتقلات.

أحست أن من واجبها التأقلم مع المأساة، ولم تستطع أن تخدع نفسها ولا بأي شكل من الأشكال، فهي لم تعد هي، حيويتها ونشاطها وقدرتها على التركيز وكتاباتها الوجدانية التي كانت تنشرها في العديد من الصحف والمجلات، كل ذلك عُطب، ما عادت تملك الهمة لقراءة صفحتين، وتعيد مرارًا ما تقرأ لتفهم ولا تفهم، تعرف أن حطامًا حصل في روحها كما حصل في منازل وقرى سوريا، تحس بالحطام تمامًا لكنها لا تجرؤ أن تغوص فيه، ربما ستنهار تمامًا لو قدرت كمية التشويه والخسائر التي أصابتها.

صارت تمشي كلَّ صباح بخطًا رتيبةٍ بطيئةٍ متأملة بعينين جامدتين ذاهلتين صور الشهداء القتلى.. كل يوم المزيد والمزيد من الشهداء، يصيبها القتل بالانبهار، لكنه انبهار من نوع خاص.

وبدأت فكرة الانتحار تتسلل كاللص إلى عقلها، كما لو أنها من إفرازات الموت المتواصل لشبان سوريا، كما لو أنهم يدعونها لتشاركهم مصيرهم، كما لو أنهم يقولون لها: لماذا أنت حية ونحن متنا، والأجدر أن يموت الكبار وتتفتح براعم الصبا؟!

لم تفكر يومًا بالانتحار، وكانت تتعجب كيف تسللت تلك الفكرة إلى رأسها وأخذت تتمدد مُستعمرةً خلايا دماغها، حتى ملامحها تغيرت؛ إذ أصبحت متجهمةً بعد أن كان الجميع يمتدح وجهها الصبوح وابتسامتها المُشعة من قلبها.

لم تعرف كيف ستؤثر بها الحرب والقتل، لكنها كانت مستسلمةً ومذعورةً في الوقت نفسه، وأكثر ما كان يُقلقها ويُخيفها إدراكها أو حدسها أنها لم تعد تملك الإرادة الكافية للصمود في وجه الآثار المدمرة للحرب، سيان عندها النظام أم المعارضة، لا تشعر أن أحدًا منهما يمثلها أو يمثل الشعب السوري، صارت فجأةً تعاني من نوب عاصفة من البكاء، وتنبهر من قدرة غدتها الدمعية على ذرف الدموع.

في تلك اللحظات، الذي كان يحلو لها أن تستدعي صورة المسيح وهو في البستان أعزل ويائس يقول لأبيه الله: يا أبتِ أبعدْ عني هذه الكأس. كانت تحب أن تتماهى مع شخصية يسوع المسيح؛ فكلاهما في قمة الألم، وكلاهما عاجز عن تجرُّع كأس الألم حتى النهاية، لكن لرب العالمين مشيئة أخرى؛ إذ إن الألم قدر الإنسان.

كيف ستساعد نفسها ونوب البكاء أصبحت تتزايد وتتقارب؟ لِمَ لا تقصد طبيبًا "نفسانيًّا"، لعله يعطيها دواءً مضـــادًّا للاكتئـــاب ورافعًا للمزاج؟..

حاولت التملص من تلك الفكرة؛ فهي تخجل أن يحزر أحد من معارفها أنها قصدت طبيبًا نفسانيًّا، لكنها صممت ذات يوم وأخذت تَلبس ثيابها بسرعة خوفًا من تراجعها عن قرارها، وقصدت عيـــادة طبيب نفساني معروفٍ تجمعها به علاقة زمالة، صُعقت حـــين رأت قاعة الانتظار تغصّ بالمرضى أو بالمراجعين! «ياااه».. إلى هذا الحـــد يتألم السوريون؟ لكنها وجدت في كثافة العدد علامة إيجابيـــة علـــى تطور الوعي والموقف من الطبيب النفسي الذي كان يُسمى «طبيبَ المجانين».

لم يكن هناك كرسيٌّ فارغ، بل كان عدد الواقفين يفوق عـــدد الجالسين، وكأنها على حين غرة تكتشف حقيقة الحرب، الكل متألم وممزق نفسيًّا ومُدمر معنويًّا، لكنها تساءلت: كيف يســـتطيع هـــذا الطبيب أن يُعالج كل هؤلاء المتعبين! فكرت أن تعود أدراجها، لكن شعورًا غريبًا بأمان المُشاركة داهمها ليؤكد لها أنها ليست وحيدةً ولا فريدةً في آلام روحها واكتئابها.

ومن خلال نظارتها الشمسية الداكنة كانت تـــتفحص الوجـــوه، استقر نظرها على قدمَيْ شابٍ مقطوعتين فوق مستوى الركبة، ويلبس لباسًا عسكريًّا قدّرت أن عمره عشرون عامًـــا، وأن شـــظية صـــاروخ أصابته وعطبته.. ترى أي دواء مضاد للاكتئاب سوف ينفعه؟!

ثمة عدة نسوة متّشحات بالسواد لعلهن الأمهـــات الثكـــالى! تراقص أمامها وجه ابنتها مُبتسمةً، تذكرت أنها حية وبعيـــدة، أمـــا

هؤلاء الأمهات فقد دفنَّ أولادهن.. ترى كيف يتحمل الطبيب كل تلك المآسي؟ عصف بها حنين جعل جسدها يقشعر: ترى كم يتألم الإنسان؟! وكيف يتحمل كل هذا الألم؟!

استدارت لتنصرف لكن صوتًا مألوفًا ناداها، إنه صوت الطبيب الذي فتح لتوّه باب غرفته ولمحها، تعجبتْ كيف عرفها وهي تُدير ظهرها إليه هامَّةً بالرحيل، رجاها أن تنتظر؛ فلن يطول انتظارها.

تقدَّم منها وصافحها بحرارة، ولم ينسَ أن ينقل إليها إعجابه بمقالاتها التي تنشرها في صحف عديدة، ومضت شرارة من السعادة والزهو في قلبها، شكرته وقالت له إنها ستقصد السوق القريب من عيادته وتعود بعد نحو نصف ساعة.. شد على يدها وأكد لها أنه بانتظارها.

كانت عيادته تقع فوق عدة دكاكين للألبسة المستعملة، وكانت تشعر أن الرائحة العطنة لتلك الألبسة هي رائحة حياتهم.. تأملت الألبسة العتيقة وبعضها جديد، وفاجأها غلاء الأسعار. قاست قميصًا كحليًّا أعجبها جدًّا، سألت البائع عن سعره فقال: ثلاثة آلاف! شهقت متعجبةً: كم أصبحت الألبسة المستعملة باهظة الثمن! ظنت بسخرية أن المواطن السوري صار يحتاج (لبالة البالا)، ولكنها اشترت القميص لسبب وحيد، أنه أدخل شيئًا من البهجة إلى روحها.

جلست في مقهى رصيف، فلن تعود إلى العيادة النفسية قبل نصف ساعة، طلبت عصير التفاح، يعطيها الزحام البشري راحةً نفسية، تحب أن تقول لنفسها تلك العبارة: «كلنا في الهوا سوا».. مرَّ الباص أمامها مُختنقًا بالناس، حتى أن البعض معلق على الباب بقدم

واحدة، ومتشبث بطرف باب الباص، أكثر ما يؤلمها منظر الأطفال، متعرقين ومتعبين وابتسامة ذاوية على شفاههم، وأحيانا يبكون دون أن يعرفوا لماذا! يبكون قسوة الحياة وانعدام البهجة والفرح، يبكون من الفقر والتوق إلى دمية أو حذاء جديد.

شربت عصير التفاح المُطعم بطعم عفونة، لكنها لم تعترض و لم تشكُ، كما لو أن الفساد والرداءة عنوان الحياة في اللاذقية.

عادت إلى العيادة النفسية واستغربت كيف خف الازدحام لدرجة كبيرة، ثمة مريضان فقط ينتظران، دخل المريضان معًا عيادة الطبيب، يبدو أن أحدهما مُرافق للآخر، وجلست على مقعد دافئ تتأمل اللوحات الجميلة المزيِّنة لجدران العيادة، وكلها تُمثل مناظرَ طبيعيةً خلابةً يغلب عليها اللونان الأزرق والأخضر..

لم تمر دقائق حتى خرج المريضان، فكرت: هل أنا مريضة أيضًا؟ ألا أتساوى بهؤلاء الذين قصدوا الطبيب النفساني! لم يترك لها مجالاً لتأمل فكرتها؛ لأنه عاد إلى الترحيب بها، وهو يتقدمها إلى مكتبه.

سألها إن كانت ترغب بشرب فنجان من القهوة أو الشاي، لكنها شكرته، ولوهلة عصف بها شعور بالندم كونها قصدته، ماذا ستقول له؟ اكتشفت أنه يستحيل أن تبوح له بتلك النوب الهستيرية من البكاء العاصف التي تنتابها، وبإدمانها الحبوب المهدئة، وأنها إلى أي حد كئيبة ومذعورة ومحطمة نفسيًّا بسبب كل الإجرام الذي يحدث.

ابتدأ الكلام بالتحدث عن مقالاتها التي تكتبها في عدة صحف، وأثنى على حياديتها وتحليلها المنطقي لما يجري.. كانت صحافية مرموقة وشجاعة، وكان كل من حولها يقولون لها: نستمد الشجاعة منك.

أحست بغربة عن نفسها وعرفت أنها ستخدعه ولن تقول لـــه الحقيقة.. الطبيب يكنّ لها الكثير من الاحترام والتقدير، فأي عارٍ أن تريه الانهيارات النفسية التي تحصل لها حين تكون وحيدةً في البيـــت، أو حين تتسكّع في الشوارع هائمةً كمن تبحث عن روحها.

شبّك أصابعه وابتسم بوجهها، وقال: خيرٌ.. ما الذي يزعجك؟ ردت وهي تشعر باحتقار شديد لنفسها: الأرق.. نـــومي صـــعب جدًّا.. طوال اليوم أحسّ بحالة وهن وتعب. ســـأل: هـــل تتنـــاولين الحبوب المنومة؟ ردت: أحيانًا. وفرز خيالُها صورتَها تبتلع كومةً من الحبوب المختلفة الأنواع والمنومة، وكيف تفيق كمن تســـتيقظ مـــن كابوس رهيب.

سألها: وماذا أيضًا غير القلق؟ قالت: لا شيء، لكن كما تعرف كلنا مُروعون من هول العنف والقتل في سوريا، أعصابـــي متعبـــة. وجدته يُخرج من حقيبة يده الصغيرة ظرفًا دوائيًّا واعترف لهـــا أنـــه يتناول كل يوم الدواء المهدئ، وأنه رغمًا عنه صار سوداوي الطباع. قال: لا أخجل من قول الحقيقة؛ إذ يستحيل أن تجدي سوريًّا ســـويًّا يتحمل هذه الظروف.

كم قدرت شجاعة اعترافه، لكنها تعجبت أن يكـــون الطبيـــب النفسي هو أيضًا مريض ويحتاج إلى من يدعمه، تمنت لو تمتلك شـــجاعة الاعتراف والبوح بالحقيقة؛ فهي تعاني من الاكتئاب وتنتابها نوب بكـــاء عاصف، وأحيانًا تبقى لأيامٍ في البيت دون أن تمشط شعرها أو تغســـل وجهها، ليست ساذجةً حتى تعرف أنها تعاني مـــن الاكتئـــاب مـــرض العصر، وقد قرأت عنه كثيرًا، لكن شعورًا ما يمنعها من البوح بالحقيقة.. تمنت لو أن الطبيب يحزر من تلقاء نفسه أنها مكتئبة.

تنهد وقال لها: إنه سيكتب لها دواءً جديدًا أثبت فعاليته كمضاد للقلق ومنوم جيد، بشرط أن تتناوله بعد عشاء خفيف؛ لأن الأكل الكثير يقلل من مفعوله.

وجدت نفسها فجأةً تتشنج وتقول للطبيب: لا أخفيك، أنا كئيبة أعاني من الاكتئاب. أحست برضًى، وأنه من العار أن تخفي مرضها.. تابعت: لقد تأثرتُ كثيرًا بسفر ابنتي وأهلي وبقائي وحيدةً في وطن الموت.

أخذ يستوضح منها بعض الأعراض الاكتئابية: كنقص الشهية، وعدم الرغبة في الاختلاط بالناس، والأرق الحاد، وعدم الحماسة لشيء.. لكن كما لو أنه تذكَّر أنها تكتب مقالَيْن كل أسبوع في أكثر الجرائد شهرةً ومصداقية، فقال لها وهو يربت على خدها: من تكتب بتلك الطريقة لا خوف عليها من شيء.. سأعطيك دواءً أيضًا مضادًّا للاكتئاب، دواءً ممتازًا، وستجدين كيف ستتحسن نفسيتك خلال أسبوعين، لكن عليك أن تتناوليه على الأقل ثلاثة أشهر.

وجدت نفسها تفكر بالانتحار، وبعظماء يابانيين خاصةً حصلوا على نوبل وانتحروا، تاقت روحها أن تسأله ما رأيه بالانتحار؟ وكيف يفسر انتحار عظماء وناجحين بعد حصولهم على نوبل.. عرفت أنها لن تستطيع أن تقول له إن فكرة الانتحار تغويها وتراودها، لكنها تعرف أنها لن تنفذها لسبب وحيد، كونها أمًّا.

سألته عن المرضى الذين يعاينهم، وما أكثر الأعراض التي يشكون منها؟ ضحك وقال بمرارة لم يستطع إخفاءها: الشعب السوري كله يعاني من الاكتئاب، ومن أمراض نفسية رهيبة. سألته: وهل الدواء متوافر للجميع؟ رد: قطعًا لا، لكن ماذا باستطاعتي أن

أفعل؛ فأنا لست ساحرًا، من لا يستطيع شراء الدواء غالبًا ما يقصد الجمعيات الخيرية، وإن لم يوفروا له الدواء يعيش متآلفًا مع اكتئابه، وهذا الشهر سجلت ثلاث حالات انتحار لمكتئبين اكتئابًا حادًّا لم يتناولوا الدواء.

استأذنته بالانصراف وهي تشعر بروحها تختنق مستعيدةً كلامه عن المنتحرين، أحست أنها تنتمي إليهم، ودّعها بحرارة رافضًا أن يأخذ الأجر، وطلب منها وهو يمدّ لها بطاقته أن تتصل به في أي وقت، ونبهها أخيرًا إلى ضرورة عدم تناول الكحول مع الدواء، أو تناوله بكمية قليلة جدًّا.

أين قرأت تلك العبارة التي جعلت قلبها ينخلع من مكانه: «في اليابان يصفون سقوط الأزهار بأنه رؤوس تُقطع». وفي سوريا تُقطع الرؤوس فعلاً من قِبل منظمات إرهابية تتقنع بالدين، وعلى رأسها داعش، ويموت شبان وشابات، رجال ونساء وأطفال في معتقلات النظام.. وعليها أن تعيش يومًا طبيعيًّا على هذه الخلفية الإجرامية المُروعة؟!

تشعر أن الجرائم والتعذيب يطول وجودها نفسه، ويرتشح في خلاياها، ثمة عذاب لا يرحم ينهش جسدها رغم مظهرها المُعافى، أية حياة هذه و لم يعد للعدالة والرحمة من وجود؟ كانت تشعر بالخجل من ابنتها، ومن الجيل الفتيّ الذي يشهد ويعي كل هذا الإجرام، وتشعر أنها ترغب أن تعتذر منهم على تلك الوحشية التي يشهدونها ويكونون غالبًا ضحاياها.

كم تشعر بالترويع وهي تتأمل أطفالاً سوريين، حفاةً قذرين، أشبه بهياكل عظمية، يشحذون ويتنقلون بين الزبائن في مقاهي

الرصيف، لا شيء يخفف من توترها سوى الجلوس في مقاهي الرصيف؛ تشعر أنها تنفض الكآبة عنها كما كانت تنفض الغبار عن الأريكة، لكنها تتركها الآن دون اهتمام، تجلس في مقهى الرصيف وتدخن الأركيلة عارفةً مضارَّها، بل كما لو أن مضارها تزيد من إغوائها.

لم تعد تهتم بتفاصيل حياتها منذ بداية الثورة السورية، وتحديدًا بعد سفر ابنتها، صارت تعايش نفسها وتأكل -كيفما اتفق وغالبًا- وهي واقفة في المطبخ، تقلي بيضًا تأكله دون شهية، أو تشوي قطعة من صدر دجاجة وتأكلها، وتترك الأطباق غير مغسولة لأيام.

تتحسر على نفسها كم خسرت حيوية روحها، وكم كانت تجلو أكوامًا من الصحون والطناجر بحماسة وسعادة، ثم تمسح بلاط الصالون الكبير في بيت أهلها وبلاط المطبخ، ولا تشعر بتذمر أو تعب.

الآن الحياة لم تعد حياةً، تُلاحق دخان الأركيلة وتحاول أن تُقدر مدى الأذى الذي حلّ بروحها، تشعر أنها تسمع صوتًا "خافتًا" أشبه ببكاء صامت تحاول كبته، إنه عويل حزنها وكآبتها بالتأكيد؛ إذ لا يمكن أن تزور الحقيقة وتضحك على نفسها.

تشعر بتعاطف كبير مع صبي الأركيلة الذي يدور بين الطاولات حاملاً وعاء الجمرات المشتعلة، ينادونه بصوتٍ عالٍ أحيانًا بعبارة: «نارة يا ولد».. لكأن اسمه تحوَّل إلى عبارة «نارة يا ولد»، والولد شاحب، ويقضي ساعاتٍ طويلةً في المقهى يُشعل الأراكيل للزبائن، ويبدل الجمرات، ويشكر بلطفٍ مَن يقدم له بخشيشًا.

تُقلب علاقاتها الاجتماعية وهي جالسة في مقهى الرصيف تنصت لقرقرة الماء في الأركيلة: كم ذبلت علاقات قربى وصداقات

بسبب اختلاف المواقف من الثورة السورية! كم عاينت عداوات بين الإخوة، وبين الأزواج والأقرباء! لكن أكثر ما يؤلمها هو تصحُّر المشاعر البشرية، كل مرة تستدعي وجهًا، الوجه يمثل الشخص، وتتفحص كيف تغيرت علاقتها به.

تشعر بمرارة واشمئزاز حين تستدعي صورة عمها الوحيد وأولاده، تشعر كم يكرهونها، وكيف قاطعوها تمامًا لأسباب لا تستطيع تحديدها بدقة، لكن قد تكون الحسنة الوحيدة لتلك الثورة أنها أسقطت القناع عن علاقات كثيرة كانت زائفةً وغير حقيقية، و لم تكن الثورة سوى الشعرة التي قصمت ظهر البعير.

تتأمل أسرة عمها الوحيد الذي كانت تأمل أن يكون والدها الثاني، تستحضر وجوه أولاده ووجه زوجة عمها، كلهم يشفقون عليها ويتعالون؛ لأنها مُطلقة، ولأن المطلقة فاشلة وعاثرة الحظ ومنبوذة برأيهم، لا تنسى عبارة قالتها زوجة عمها حين كانوا يبحثون عن زوجة لابنهم الوحيد فاحش الثراء: «نريد زوجةً لم يُقبّل فمها إلا أمها»، وحين اقترحت عليهم فتاةً ممتازةً ليرتبط بها، رفضوا بحجة أنها كانت مخطوبة، وقد تكون مارست الجنس مع خطيبها.

أدركت أنهم لا يفقهون شيئًا بالنفس البشرية وآداب الكلام من وجوب احترام الآخر, لم يعنِ لهم شيئًا أنهم يفاخرون بأفكارهم أمام امرأة شابة مطلقة هي ابنة عمهم الذي له أفضال لا تُحصى عليهم.

كانت متعتهم الأكثر إثارةً النميمة والسخرية من الناس والمعارف والأصدقاء الذين يعاشرونهم، لا يبالون أن مَن كان في بيتهم صديق، ما إن ينصرف حتى يبدؤوا بالهزء منه، فهم يريدون أن يكون كل الناس أدنى منهم.

وكان عمها الذي تسلم دعوى طلاقها يمنّها بطريقة غير مباشرة أنه لا يتقاضى منها أتعابًا لأنها ابنة أخيه، ولم تكن تبخل عليهم بالهدايا في كل مناسبة، لكنهم كانوا يُشعرونها دومًا باستصغار هداياها وشخصها، والآن سقط القناع، صرخ الشعب مطالبًا بالحرية والكرامة والعدالة، وتزلزل كل شيء، الحجر والبشر، وسقطت الأقنعة.

لكنها لم تتوقع القطيعة التامة بينها وبين أسرة عمها الوحيد، لم يتصلوا بها أبدًا حتى حين سافرت ابنتها الوحيدة وسوريا مهددة بالضربة الأميركية، ولم يخطر ببالهم أنها ابنة عمهم الوحيدة، والتي تعرضت لحادث سيارة مروع ولم يتفقدها أحد منهم! كانت تتألم في البداية من قسوتهم الوحشية، ثم تحوَّل ألمها إلى احتقار لهم.

لقد امتلكت شجاعة مواجهة نفسها أخيرًا، وعرفت أنهم أسرة لا قِيَم لديها سوى عبادة المال والطعام، المشروبات الكحولية، وكانوا يعبدون المال، ويسخرون من الفقراء والمساكين.

لكن.. كم هو مهين ومُخجل أن تمرّ خمس سنوات منذ بداية الثورة وثمة قطيعة تامة مع أسرة عمها. كانت تردد بينها وبين نفسها عبارة «قطيعة تامة، قطيعة تامة»، فيعكس خيالها صور حبال تتقطع، هل بلغت الأحقاد بين الناس هذه الدرجة! كم هو مَعيب أن تنهار كليًّا علاقات القرابة والصداقة، بل وتتحول إلى كرهٍ واحتقار.

في كل مرةٍ تجلس في مقهى رصيف وحيدة لا تملك سوى تقليب ذكرياتها وحياتها، أكثر من نصف قرن يُرخي بثقله على كاهلها، تحاول أن تستحضر مواقفَ وذكرياتٍ كانت مفتونةً بحلاوة الحياة وممتلئةً حماسةً وفرحًا، هل كانت هكذا حقًّا؟ «يااااه».. كم

تغيَّرت الظروف والأحداث، كم تغيَّر البشر؟ لا تنقم عليهم بل تُبرِّر لهم مواقفهم، فهم مثلها يعيشون حزنًا ورعبًا لا حدود لهما، وهم مثلها افتقدوا أولادهم بالموت أو بالغرق أو بالنزوح.. الهواء يعبق برائحة الموت، واليأس ينهش النفوس، وأشكال وتنوعات الأمراض العصابية لا تخفى.

تستحضر وجه قريبتها التي تعرضت لجراحة خطيرة وهي استئصال المبيضين، كانت في الثلاثين من عمرها، وتحلم بالزواج، وهدّها وهزمتها هذه الضربة، كم وقفت إلى جانبها وساندتها ماديًّا ومعنويًّا إلى أن استطاعت قريبتها تجاوُز صدمة مروعة، ومرت أشهر من الجفاء والابتعاد الذي فرضته عليها فرضًا تلك القريبة دون أن تعرف السبب! ولم يخطر ببالها أن تتصل بها حين تعود من السفر وتقول لها: الحمد لله على سلامتك..

الحدود الدنيا من اللباقة الاجتماعية ضُربت، كأن الحرب سرطان ينهش في النفوس ولا يملك الناس وسيلة لمقاومته، لو يعرف الناس أن أرواحهم تتحطم كما تتهدم المنازل التي تُقصف، لكن لا أحدَ منتبهٌ لهول التغيرات في روحه.

كان عليها أن تواجه كل الإحباطات والكوابيس وحدها، فلا مُعين لها؛ لأن الآخرين صورة عنها، ولم تكن من وسيلة للتعزية سوى تلك الأحاديث التي تتبادلها مع صديقاتها اللاتي ترزح كل واحدة منهن تحت وطأة مشكلات قاسية، وبعضهن يبعن أثاث بيوتهن لتأمين تهريب أولادهن.

أحاديث الأسى والمرارة هي ما تجمعها بصديقاتها فتُحسّ بالخجل من وصف أوجاع روحها وشكواها من الوحدة والفزع؛ إذ

صارت تخشى النوم بسبب الكوابيس، اعتقدت أنها تعاني وحدَها من الكوابيس المرعبة، لكنها أحست بشيء مِن تعاطُفٍ وطمأنينةٍ حين أخبرتها إحدى صديقاتها أنها تعاني من نوب فزع وكوابيس مروعة تُبقيها في حالة أرق وخوف شديدين، وأنها استشارت طبيبًا "نفسيًّا" وأكد لها أن هذه النوب ما هي إلا نتيجة طبيعية للظروف التي يمر بها البلد.

***

فرنسا

تبتلع دموع الشوق وهي تضع ثيابها في حقيبة السفر، تتذكر كيف ودَّعت ابنتها، وكيف ساعدتها في حزم الحقائب.. لم تكن راغبةً بالسفر لكنها كانت مضطرةً كي تلتقي ابنتها وأهلها، فهي وحيدة في اللاذقية، تستعيد ذاكرتُها صورها.

كم تكون فرحة ومُبتهجة حين تحزم حقائب السفر لتلتقي إخوتها في باريس، كانت وقتها سعيدة وحرة، واتخذت قرار السفر بإرادتها، لم يكن وقتها حرب وقتلى ومآسٍ، الآن سفرها اضطراريٌّ وعانت كثيرًا كي تحصل على فيزا إلى فرنسا.

سافرت إلى بيروت بعد أن أخذت موعدًا على الإنترنت وقدمت أوراقها، وانتظرت عند باب السفارة لساعات مع سوريين طامحين وطامعين في فيزا إلى فرنسا، رُفض طلبُها في المرة الأولى و لم تفهم السبب، فقام أخوها طبيب القلبية بتقديم اعتراض على رفض طلبها، وأخيرًا قبلت السفارة الفرنسية أن تعطيها فيزا سياحية لمدة ثلاثة أشهر فقط.

يا لموهبتها في ذرف الدموع، الحقيبة ممتلئة بالهدايا للأحبة، وخاصةً لابنتها التي ستأتي من لندن لتلتقيها في باريس، ظنت أنها أصبحت بدورها مُشردةً ونازحةً، لكن تملك ما يكفي من المال

للسفر، رغم أن انهيار الليرة السورية أثّر كثيرًا في معيشتها، يصيبها غضب عارم كلما دفعت فاتورة كهرباء أو ماء، لكنّ غضبها لا يُقارن بغضب هؤلاء المساكين الذين لا يملكون مالاً، لكن الدولة وجدت طريقةً لامتصاص غضبهم، بأن تقسّط لهم الفواتير والمبالغ الباهظة الواجب عليهم دفعُها وهم بالكاد يؤمنون الخبز لأولادهم.

صارت حياة السوري مجرد مجازفة، عليه أن يرمي نفسه أينما اتفق في بلاد الله الواسعة، لكنها تحاول دومًا خلق شخصية زائفة من شخصيتها الحقيقية، تحاول خلق شخصية إيجابية مشحونة بالأمل والفرح رغم تعاستها، تتمنى لو تترك التفكير كثيرًا بالمستقبل؛ لأنها كلما فكرت فيه اصطدم تفكيرها بجدار، لا أُفق لحل الأزمة، ولا بارقة أمل، والشعب السوري يُطحن بين مطرقة النظام وسندان المعارضة.

ربما عليها أن تؤمن بالمعجزات، أو تصير بلهاء وتنفصل عن الواقع مثل صديقتها التي اعتبرت ذوبان الشمعة رمزًا لمريم العذراء التي خصتها بنعمتها.

***

باريس

يا لكآبة باريس التي لا تشبهها كآبة، خصصت لها أختها غرفةً خاصةً مُتخمةً بالأغراض: السرير عبارة عن أريكة تُفتح فتتحول إلى سرير، الفرشة أكبر من مساحة الأريكة؛ لذا فهي مهددة بـــالانزلاق وهي نائمة إن لم يكن وضعها في المُنتصف تمامًا، خلفها خزانة عريضة تشغل مساحة الحائط، واجهتها مرآة كبيرة، كانت تتحاشى أن تنظر إلى وجهها حال استيقاظها، عارفةً أية مشـــاعر مُتجهمـــة ســـوف تُطالعها.

كانت تتظاهر أنها لا تزال نائمةً كي تُعفي نفسها وتُعفي أختها وابنتيها المُراهقتين من رؤية وجهها المُتجهم، وكي لا تضطر إلى تزوير مشاعرها والتظاهر بالفرح والغبطة، كي لا يحزر أي منهم أنها تبـــدأ يومها باللعنات والكره، لا يُمكنها أن تلومهم؛ فأختها لطيفة جـــدًّا معها وكريمة، وتعمل على إسعادها وتدليلها، لكنها لا تفهم أي وجع تعاني منه أختها التي حملت سوريا النازفة بين طيـــات روحهـــا وفي تلافيف دماغها.

لذا ما إن كانت تسمع انصفاق الباب الذي يعـــني مغـــادرتهم البيت حتى تخرج من جحرها (كما كان يحلو لها أن تُسمي غرفتها)، وتتجه بآلية إلى المطبخ تُعد ثلاثة فناجين من القهوة وتأكـــل الجبنـــة

الفرنسية دون شهية، كانت تُحسّ أنها آلة ولا تُحسّ بأية ألفة مع المكان، بل تشعر أنها تأكل كحيوان، ولتزجية الوقت، وليس لأنها جائعة، تتمنى لو تركل يومها كما لو كان كرةً، وتجد نفسها في قلب الليل مستسلمةً للنوم بمساعدة المنوم.

كان أخوها وأختها قد تقدّما بطلب إلى الحكومة الفرنسية كي تحصل على بطاقة إقامة فرنسية، وكي تتمكن من لقاء ابنتها عندما تسمح الظروف، لكنها لم تتوقع أنها ستنتظر أشهرًا للحصول على تلك البطاقة التي تتجدد سنويًّا.

كرهت باريس وكرهت فرنسا، وصار تمرير الوقت محنةً كبيرةً بالنسبة لها، كان وقت العمل طويلاً يحتل معظم اليوم، وتعود أختها وزوج أختها والطفلتان متلاشين من التعب، وبانتظارهم مهام عديدة: من دراسة، وتحضير للعشاء، والدُّشّ المسائي العاجل، ثم النوم.

كانت تشعر أنها بلهاء بالابتسامة التي تضطر إلى رسمها دومًا على شفتيها، وغالبًا ما تكذب بأنها زارت كنيسة النوتردام أو غيرها من المعالم الأثرية، لكنها في الواقع كانت تقضي ساعات نهارها وساعات بعد الظهر في صراع مرير بين اليأس والأمل، وغالبًا ما ينتصر اليأس فتتناول عدة حبوب مهدئة مع كأس من النبيذ أو الويسكي كي يزيد من تأثير الحبوب، وتحكم إغلاق النافذة وتستسلم لغيبوبة الموت لساعات.

ومن حسن حظّها لم يلحظ أحدٌ سلوكها هذا؛ إذ كانت فنانةً في الكذب وتتظاهر أنها قضت يومها على أفضل ما يكون.

في البداية كانت تتألم كثيرًا لتلك الغربة بينها وبين أختها، أيّ ألمٍ أكبر من أن تعيش مع أقرب الناس لك وأنت غير قادر على البوح

بمكنونات روحك، وفي اللحظات النادرة التي كانت تصطدم مع أختها في نقاش عام سرعان ما يتوتر، كانت أختها تُعلمها صراحةً أنها مستنزفة ومشغولة لدرجة غير قادرة على تحمُّل المزيد.

أخوها، حين كانت تسافر إليه في مدينته فيشي الهادئة التي يعبرها نهر ساحر، كان بدوره مستنزفًا في العمل ومشكلاته المتنوعة، وبدوره عبّر لها أنه لا يستطيع مشاركتها همومها.

كانت تقضي أيامًا دون أن تمشط شعرها، أو تضع خطَّ كحلٍ على عينيها، زاهدة غير مبالية، وثمة صوت شيطاني يُغويها بالانتحار، لم تكن رغبتها بالانتحار حقيقية، بل كانت تشعر أن شبان سوريا الذين يموتون بالمئات كل يوم موتًا "عبثيًّا" يدعونها لمرافقتهم في رحلتهم إلى العالم الآخر الذي قد يكون أكثر رحمةً من هذا العالم، وكانت تعرف بأعماقها تمامًا أنها لن تنتحر لأنها أم، ولأنها لن تطعن ابنتها تلك الطعنة القاتلة وتجعلها تعيش في عار انتحار أمها، سيصير لقبها «ابنة المُنتحرة»، كما لو أنها تُورثها إرثًا من العار.

لكن قصص المنتحرين بدأت تحتل مساحةً أكبر فأكبر في ذهنها، كم من عظماء في التاريخ انتحروا! الكاتب الياباني الذي حاز على جائزة نوبل للآداب انتحر، يُخفف هذا التفكير من إحساسها بالذنب والخزي.. لكن ثمة وجه تعبده يُرجح كفة الحياة لديها، إنه وجه ابنتها العصامية الرائعة التي تشق طريق مستقبلها بطاقة أملها وطموحها، وهي تنتظرها كل يوم على السكايب لترى وجهها، ولتتظاهر أمامها بأنها أمٌّ سعيدة مُتماسكة؛ كي تُقوّي عزيمة ابنتها وتدعمها.

ولطالما تساءلت: ترى هل تحزر ابنتها حالتها النفسية المنهارة؟ وهل ثمة تواطؤ خفيّ بين الأم والابنة؟ هل تحبها ابنتها إلى الحد الذي

تتجاهل فيه عمدًا إشعار أمها أنها منهارة وأنها مُحاصرة بالموتى وبالشهداء الشباب الذين يموتون عبثًا، وتكاثر صورهم كل يوم مغطّيةً الجدران.

وحيدةٌ وعزلاءُ في باريس تشتاق إلى وطن الرصاص سوريا، فالأمكنة أرواح، وهنالك تسكن روحها.. ابتسامة النفاق لا تفارق وجهها، وتلك الرغبة الجامحة بأن تصرخ في عز الليل موقظةً النائمين لتنبههم لآلام روحها، كم كانت تخشى أن تنفلت منها تلك الصرخة حقيقة، لكنها كانت تلجمها بابتلاع المزيد والمزيد من الحبوب المهدئة، وحدَها السخرية كانت تلطف ألمها، تتأمل عجائز المدينة تتمنى لهم الموت، ليس كرهًا لهم، بل كي يهبوا حياتهم للشبان الذين كانوا يُقتلون بالبساطة التي تموت فيها الفراشات حول النور.

كانت تتأمل والدها الذي على أعتاب عقده التاسع، بمشيته البطيئة المترنحة، ونظره الضعيف، وتحس بالعبث والشفقة، لم تكن تفهم شعورها، لم تتخيله ميتًا، كما لو أنه أقرب إلى عالم الأموات، تتأمله وأمها كلَّ صباح يفتحان كيس الأدوية ويتناولان العديد من الأدوية للضغط والكوليسترول والسكري والتهاب المفاصل، ولأوجاع غامضة يهديها أرذل العمر لأصحابه.

تجدُ عقلَها ينشطر إلى قسمين: قسم يتابع العجوزين اللذين يشكوان من تنميل في أطراف أصابعهما، وقسم يتجول في الشوارع والأزقة التي تغص جدرانها بصور الشباب الشهداء الأبطال شاهرين بندقيتهم إلى سماء لا تعرف الرحمة، وعن يمينهم صورة القائد البطل، وعن يسارهم صورة والده المُفدى وقد اتخذ وضعية الصلاة، كما لو أنه يُصلي سلفًا على أرواحهم.

قضت شهرين متنقلةً بين باريس وفيشي حتى طلع ذلك الصباح الرهيب، كان صباحًا يُشبه الصباحات الأخرى، لكنها أحست بذعر رهيب منعها من القيام من السرير، تشبثت بالغطاء كما لو أنها تحمي نفسها من خطر مُحدق، ولم تعد تتعرف نفسها! أي شيطان تلبسها حتى أخذت تئنّ أنين الروح المُعذبة، استنجدت بالعجوزين - والديها- ورجَتْهما أن يلتصقا بها، وأن يُمسكا يديها جيدًا.

لم يكن لديهما أية فكرة عما أصابها، كان الوضع مُضحكًا "أكثر من كونه مُبكيًا"، كانت تئنّ وتتلوّى من الألم في السرير ولا تجرؤ على رفع الغطاء عنها، وتتوسل للعجوزين أن يستلقيا بجانبها؛ لأنها لا تعرف ماذا أصابها.. كانا مسكينين يُذعنان لرغبتها ويسألانها: ما بها؟ فتسيل دموعها وتقول بصوت مُرتعش: أنا خائفة، خائفة.. يسألان: خائفة من ماذا؟ فتعجز عن الجواب، لم تكن تعلم أنه الاكتئاب الحادّ، أو ربما الانهيار، فقد فاقت معاناتها قدرتها على التحمل.

وتتالت أيامها وهي تئن مذعورةً ومتألمةً من نوب ذعر غامضة، تشتد خاصة لحظة استيقاظها وترحمها قليلاً في المساء، فقدت سبعة كيلوات من وزنها دون أن تشعر، نسيت الطعام وصار عبئًا عليها، أصبحت ثيابها فضفاضةً وخافت ألا تخرج من تلك الحالة المُريعة من الانهيار، وصفَ لها أحد أصدقاء أخيها دواءً مضادًّا للاكتئاب، واظبت على تناوله وأسمته في سرّها (الدواء المُضاد للدموع) أو (المُجفف للدموع)؛ لأن عواصف البكاء التي كانت تنتابها قد خفّت حتى تلاشت.. صار ألمها هادئًا، وخفت نوب ذعرها، وبعد ثلاثة أسابيع جفت دموعها كليًّا، لكن أكثر ما آلمها هو جرح كبريائها؛ إذ

لم تتوقع أبدًا (هي المعروفة بقوتها، أن تنتابها نوبة اكتئاب حادة وهي بعيدة عن وطنها الحبيب ومضطرة أن تنتظر أشهرًا للحصول على بطاقة الإقامة).

تذكرت تلك الشابة المهندسة الثرية العانس التي كانت تعيش مع والدتها، وتربطها بها علاقة متينة كيف انهارت حين ماتت أمها، وصارت تبكي بكاءً يمزق الستائر، ويُخلخل الجدران، ولا معين لها.. الجيران كانوا يسمعون نحيبها، لكنهم يخافون أن تكون مسكونة بالجن، و لم تجد عزاء لها سوى في تربية العديد من القطط في بيتها واجدةً في الحيوان رحمةً أكثر من الإنسان.

***

ثمة حبال ثخينة تشدها إلى الأرض، كما لو أنها تثبت أقدامها بأوتاد تعيقها عن الانطلاق، مجرد المشي في المنزل تحوَّل إلى مشقة، تتذكر كيف كانت تذرع الآفاق سدى ماشيةً بهمة وخطواتها تتقافز نشاطًا وسعادةً، وكانت تعود إلى منزلها في اللاذقية تغني وتأخذ دشًّا وهي تشعر بتفاقم نشاطها كما لو أن المشي شحذها بطاقة إيجابية.

الآن تجلس في بيت أختها في باريس أو بيت أخيها في فيشي تتأمل الفراغ وتنصت بذعر إلى عويل أعماقها الذي لا يشاركها فيه أحد، لا أحد يفهم نوب ذعرها التي توقظها من عز النوم وقلبها يخفق بقوة كعصفور يحتضر.. يا لهول كوابيس الذعر التي تجعلها تنتفض من فراشها، وتسرع بخطوات حافية إلى حيث تضع الدواء المضاد للاكتئاب، وتنفذ نصائح الطبيب بأن تستنشق شهيقًا عميقًا تزفره على مراحل، تُعاود النوم بعد مشقة وبعد أن تشبثت بالغطاء تتمناه

كفنًا لكنها تستنجد بوجهٍ وحيدٍ هو أملها وهو خلاصها، أين قرأت تلك العبارة: «النساء ضعيفات لكن الأمهات قويات».

عليها أن تقاوم الاكتئاب -مرض العصر- لأجل ابنتها، عليها أن تخفف إحساسها بالموت اليومي للسوريين أحبائها، تحاول تحفيز نفسها لتقوى.. تستنسخ من نفسها صديقةً وتخاطبها: أعطِ نفسك لباريس ساحرة الجمال، دعيها لتشفيكِ من كآبة روحك، تأملي حضارتها وفتنتها وتنوّع سكانها، اشربي نبيذها المُعتّق لأجل نساء متألمات حتى العظم، مُروعات من الموت اليومي.

لكنها كسيحة، هذا ما تُحسه تمامًا؛ فهي كسيحة الروح، وجمال باريس ينزلق عليها انزلاقًا ولا تشعر أن تلك العاصمة الفاتنة مدينة النور كما يسمونها تخصها، مجرد كرة مهترئة يلعب بها صبية حفاة في اللاذقية تجعلها تتحول إلى بحيرة من الدموع.

لن يفهم أحد كيف يُمكن أن نعشق وطنًا جريحًا، يتحول هذا الوطن إلى ابن مُعاق، قُربه عذاب وبُعده عذاب، تشتاق إلى انقطاع الكهرباء، وإلى جعير مولدات الكهرباء، وإلى صراخ العالقين في المصعد، تشتاق إلى رائحة البالوعة في الزقاق قرب بيتها التي طالما اشتمّتها وكتبت مقالاتٍ ناقدةً وساخرةً من البلدية.. ماذا ستكتب الآن؟! تتمنى الموت لو فقدت قدرتها على الكتابة، لا شيء يُفزعها كالصفحة البيضاء، تتحداها كما لو أنها تقول لها: أتجرُئين وتكتبين الحقيقة؟

ترى ما الحقيقة؟ لو أرادت أن تُلخّصها بكلمة واحدة لكانت: «الخوف».. أجل هذه هي الحقيقة.. الخوف من كل شيء خاصةً من الحياة، حتى أهلها أنذروها أن تكتب عنهم، الكل يخاف من

الحقيقة، تتذكر روايات إيزابيل إيلندي كيف كتبت عن أسرها بشفافية تامة ونزاهة وشجاعة، لِمَ لا تكون مثلها؟ لِمَ لا تكون مثل فيرجينيا وولف التي ملأت جيوبها بالحصى وأغرقت نفسها.

لن تبالي، ستكتب وستصف اكتئابها وصراعها معه، وخسارتها لأكثر من سبعة كيلوات من وزنها، والكوابيس الليلية، واستنجادها بالعجوزَيْن، أمها وأبيها؛ ليُعِيناها في نوب الذعر التي تنتابها، كانا مسكينين عجوزين، كسيحين يساعدان كسيحة.

ومرَّ الوقت، الزمن الذي يشفي الجراح، وإن لم يشفِها يُلطفها، واعتادت كوابيسها وما عادت تُصاب بالذعر منها، وبدأت تمسك القلم دون أن ترتجف أصابعها ودون أن تشعر بالذعر، أخذت تكتب عن أحبائها القتلى، وتقتلع صورهم المعلقة على الجدران كشهداء أبطال.

وكان عليها أن تتماسك لأجلها، لأجل ابنة رائعة تناديها: «ماما». لو تعرف ابنتها أن في هذه الكلمة يكمن الشفاء! يكفي أن تقول لها «ماما» لتُشفَى.

لم تعد تخجل من انهيارها، ولا من تناوُلها الدواء المضاد للاكتئاب الذي أسمته (الدواء المُجفف للدموع)؛ لأنه كان يوقف نوب البكاء التي تهاجمها بلا سبب، فتبكي بغزارة مُذهلة، تُدهش هي ذاتها لقدرة عينيها على ذرف الدموع، الاكتئاب يعني أن مستوى هورمون السيروتونين في الدماغ قد انخفض أو تلاشى، وهو ما يُسمى هورمون السعادة، ومهمة الدواء المضاد للاكتئاب هي رفع مستوى هذا الهورمون.

كانت تتأمل تأثير الدواء في جسدها يومًا بعد يومٍ، وكان شعور بالاحتقار يطغى على مشاعرها، لم تكن تفهم سبب شعورها

بالاحتقار، لعل كرامتها تأبى أن تعترف أنها اضطرت إلى تناول الدواء المضاد للاكتئاب؟

كانت تهيم في شوارع باريس بمشاعر متخثرة جامدة، غير مباليةٍ بسحر المكان وعظمة الحضارة، كانت مُستلَبةً كُليًّا للوطن النازف، للأطفال الذين يموتون في مجازر، والذين يشكلون مادةً دسمة ومُربحة للفضائيات، للشبان الضحايا في الجيش السوري الذين يموتون يوميًّا.

تشعر أنها تقتات الموت مع طعامها، وأن أعصابها لم تنهَرْ إلا لأنها بعيدة عن أحبائها هناك في وطن اسمه سوريا؛ حيث تهيم روحها هناك رغم بؤس العيش.. عليها أن تبقى في باريس للحصول على بطاقة الإقامة التي تتجدد كل عام، تشعر أنها متسولة تنتظر بطاقة تسمح لها بالسفر، ولولا حاجتها إلى تلك البطاقة كي تلتقي ابنتها وأهلها لما انتظرت كل تلك الشهور.

حالة من العدمية والعبث تنتابها وتُفرج عنها، إصرارها أن تلبس القميص ذاته كل يوم، وألا تتزين ولا تضع خطَّ كحلٍ على عينيها - كما اعتادت-، كما لو أنها تريد بطريقةٍ ما أن تُهين فرنسا وأن تنتقم لسوريا، أن تعلن رفضها للمكان وللظروف.

كانت على تواصل يومي عبر سكايب مع أحبائها السوريين في الداخل، كل يوم ينقلون إليها كارثةً ويصفون لها بؤس حياتهم، وكان الشوق إلى أزقة اللاذقية يحرقها، حتى إلى مجنونة المدينة التي اسمها هيام، والتي كانت مشهورةً بشتائمها البذيئة للمارة، وتعرّيها أحيانًا، تشعر بشوق إليها، فلكل مدينة مجانينها ومتسولوها.

كانت تجلس في مقاهي الرصيف في باريس تطلب قهوةً أو كأسَ نبيذٍ، وتحسب كم يعادل سعره بالليرة السورية، شاعرةً بطعنة

ألمٍ من الانهيار الكبير لليرة السورية. أصبحت معضلتها الكبرى: الزمن.. كيف عليها أن تُمرّره، تتمنى لو تركل يومها منذ لحظة استيقاظها حتى يحين وقت نومها مساءً، ماذا ستفعل في زمن ليس زمنها؟ كيف ستطوع ساعات غريبة عنها مضطرة أن تقضيها في باريس. الزمن هو الحياة، وهو الانتماء، وزمنها ليس في باريس، بل هناك في الأزقة المعتمة في اللاذقية.

كم من لحظات فاجأتها فيها دموع الوله بوطن نازف! دموع تداهمها كما لو أنها مُصرة على إحراجها في الباص وسط حشدٍ من الناس، أو في مقهى يغصّ بالزبائن، لكن ربما من حسن حظها أن لا أحد يبالي بدموع امرأة وحيدة تبكي وطنًا.. كانت تشعر كما لو أنها تلبس طاقية الإخفاء، كما لو أنها غير مرئية، كانت تحب أن تشبه نفسها بالعليقة التي تشتعل بالنار ولا تحترق، كانت مثلها تمامًا مشتعلةً بحب وطن، شعلة لا تخبو ولا تتفحم.

وفجأةً قررت إيقاف الدواء المضاد للاكتئاب، رغم أن الطبيب أكد لها ضرورة تناوله ستة أشهر على الأقل، وإيقافه تدريجيًّا، لكنها قررت إيقافه بعد شهرين من استعماله لسبب وحيد: شوقها لدموعها وانفعالاتها. ما معنى أيامها ودموعها متخثرة! وغير قادرة على ذرف الدموع على شهيد، أو طفل سوري، أو شاب في الجيش السوري أو الجيش الحر.. أو أيًّا كان! ما قيمة إنسان لا يبكي؟ ما قيمة دواء يجفف الدموع؟!

عادت إلى طبيعتها الجامحة المتألمة حتى الحدود القصوى من الألم، شاعرةً أنها تعود إلى ذاتها، كان الدواء المضاد للاكتئاب يترك شرخًا بينها وبين نفسها، الآن عادت لتتوحد مع ذاتها، عادت لتأزّم روحها،

وسالت الدموع غزيرةً من عينيها، عاشت تفاصيل آلام وقلق أصدقائها وهم يهرّبون أولادهم في قوارب الموت من تركيا إلى هولندا وألمانيا.

كانت تجلس مقابل شاشة، تتأمل عبر السكايب وجوه الأمهات الصديقات المرتشحات بالذعر والقلق والألم الذي يفوق الوصف وهن ينتظرن خبرًا من المُهرب بأن أولادهن قد وصلن سالمين عابرين البحر بزوارق الموت، تتمنى لو تكون معهن، لو تمسح على رؤوسهن بحنان، لو تمدّ لهم منديلاً ليمسحن دموعهن، لكنها كانت مشلولة وهي على الطرف الآخر من العالم؛ حيث يجب أن تنتظر وتنتظر للحصول على بطاقة الإقامة.

«من يُعين إعاقتي؟».. لطاما تفتّق هذا السؤال في ذهنها في أي وقت من اليوم، وخاصةً في منتصف الليل، حيث تهاجمها رغبة شرسة أن توقظ النيام عديمي الإحساس وتنبّههم لآلام ومأساة الشعب السوري.

في الواقع، كانت تدرك أن لا أحد يُعين إعاقتها، وأنها عزلاء في ألمها ومأساتها، فكل مَن حولها يطحنه العمل وعجلة الأنظمة الرأسمالية التي لا ترحم. عليها كل يوم أن تقول: صباح الخير أيها الحزن.. وأن تتأبط أفكارها، وتحاول أن تستنسخ منها صديقًا.

أكبر قوة كانت تستمدها من كونها أمًّا.. قرأت ذات مرةٍ عبارة: «النساء ضعيفات، لكن الأمهات قويات»، فتنتها تلك العبارة، يجب أن تستحق شرف الأمومة، ألا تسبب أي ألم أو عار لابنتها، أن تُوهمها أنها قوية وبإمكانها الاعتماد عليها، وأنها سعيدة؛ لأن السعادة قوة.

كم من مراتٍ تحدثت إلى ابنتها بعد نوبة انهيار وبكاء عاصف، وتوهمت ابنتها أنها سعيدة وقوية، واخترعت لها أكوامًا من الأكاذيب والأحداث المُختلقة! المهم ألا تنهار أمام ابنة تعبدها وتمنحها نعمة شرف الأمومة، لكنها طالما راودَها الشك بأن ابنتها الذكية تعرف تمامًا حالتها، وتعرف أنها تمثل عليها بأنها بوضع جيد.. في كل الأحوال هي مضطرة إلى التمثيل؛ إذ يستحيل أن تُظهر ضعفها وانهيارها أمام ابنتها.

من حين لآخر كانت تلتقي بعض الأصدقاء الذين تركوا سوريا ولجؤوا إلى فرنسا، وانتموا إلى المعارضة السورية المُرتبطة خاصةً بالسعودية وقطر وتركيا، كانت تخجل أن تسألهم عن علامات الثراء الفاحش الظاهر عليهم وعلى أفراد أسرهم، وفي بيوتهم التي استأجرها لهم الدول التي ارتبطوا بها، تحسّهم بلا إحساس وبلا ذرّة وطنية، وأن كل غاياتهم الوصول إلى السلطة حتى لو مات الشعب السوري بأكمله.

لا تنسى قول أحدهم لها -وكان مناضلاً "عريقًا" وسُجن في زمن حافظ الأسد وفي زمن ابنه بشار- حين حدثته عن ألمها عندما تجد كل يوم عشرات النعوات من الجيش السوري مُلصقة على الجدران: «أتمنى لو ننبش قبورهم ذات يوم ونبول عليهم؛ لأنهم كانوا يقتلون المتظاهرين».

أحست بغثيان من القرف وهي تسمع هذا الكلام، وتساءلت: ألا يجب أن تكون المشاعر الإنسانية هي المُحرض الأول لعلاقة الناس ببعضهم؟! وكيف يمكن لمناضل في منتصف عقده السابع أن يتوق إلى نبش قبور شبان في عمر أولاده ويبول على جثثهم! ما ذنب هؤلاء المساكين الذين زُجوا في معركة لم يختاروها.

كانت تعود إلى شرنقة وحدها مُحطمةً من خيبة الأمل، شاعرةً كم هي ساذجة وغير مُصدقة أن هؤلاء مَن آمن الملايين بنزاهتم ونضالهم في سبيل الحرية وحقوق الإنسان! يُمكن أن يُشتروا ويُباعوا وأن يكونوا خدمًا لدول لها مصالح معينة على حساب الشعب السوري.

لم تكن تملك الكهن الكافي لتُحاورهم، فهي تعترف أنها مجرد مواطنة سورية عاشقة لتراب وطنها، وأن لا عشق لها سواه، وأن المأساة السورية التي أجمع الإعلام على تسميتها «مأساة القرن» هي قضية وجود بالنسبة لها، وأن كل قطرة من الدم السوري تُشعرها أنها تنزف دمها.

لطالما أقض مضجعها سؤال: كيف يُمكن لمناضل له تاريخ عريق في النضال أن يتنكر لشعبه ووطنه، وأن يقبض ثمن ولائه إلى دولة أخرى لا تتحقق مصالحها إلا بنزيف الدم السوري! كيف استطاعوا أن يتنكروا لوطنهم وشعبهم! وكيف أمكنهم أن يدوسوا على سنوات سجنهم في سبيل الحرية والكرامة.

كانت ساذجةً ولا تملك شجاعة أن تقول لهم حقيقة مشاعرها وأفكارها: إنهم خونة، وإنهم يتاجرون بدم الشعب السوري ويقبضون ثمن هذا الدم. ما أبشع الخيانة وما أحقرها! لكنها في الواقع لم تتخذ موقفًا "حازمًا" من هؤلاء المناضلين الخونة؛ لأنها كانت لا تزال حائرةً، ترفض التصديق والاعتقاد: كيف يُمكن لمناضلٍ مشهودٍ له بتاريخه النضالي أن يخون! خاصة وهو في خريف العمر أو أرذله.

كانوا يزيدون من أزمة روحها ويأسها وهي ترى شعبها يُذبح ويُتاجَر به من قِبل النظام، والمعارضة، والضمير العالمي، والدول

العظمى في الإرهاب. كم من المرّات كانت تمشي في شوارع باريس الساحرة مفتونةً بالجمال والعظمة، تشعر فجأةً بشلل مباغت في ركبتَيْها وروحها، فتنطوي من الألم وتشعر أنها لم تعد تقوى على النهوض وعلى المشي خطوةً واحدة، وأنها مطعونة بحربة من الألم كوطنها تمامًا، كسوريا الحبيبة الجريحة.. ترى ما الفرق بينها وبين سوريا!

وحدها كانت تعي بكل حواسها كيف يمكن للإنسان أن يتماهى مع وطنه، لكن ثمة قوة كانت تهبط عليها من السماء -ربما- تشحذها بقوة خارقة، وتجعلها تتابع سيرَها وقلبها يخفق بقوة، ودموعها تنهمر إلى الداخل، وكل خلية في جسدها تتأوّه: «أعشقكِ سوريا».

***

التوحد

تشعر بأنه يحق لها ابتكار الكلمات التي تُحسّها مناسبةً لحالتها النفسية، حتى لو حوّرت المفهوم العلمي الحقيقي للكلمة، شخصت لنفسها مرضًا في باريس أسمتهُ «التوحد»، فلا أحد يبالي بالآخر، بأخيه في الإنسانية والمعاناة والظروف المشتركة، حتى اللحظات القصيرة والمُتباعدة التي تقضيها مع أختها أو أخيها تُحسّها مُزيفةً، تشعر كل لحظة أنها تبذل جهودًا خارقة كي تُخرس صراخ أعماقها من الوجع.

أقسى شعور يعانيه الإنسان ألا يوجد إنسان يحنو عليه ويتفهّمه، أحوها مثقلٌ بالهموم والمشكلات، ولديه عمل شاقٌّ جدًّا كطبيب قلبية، ومسؤولية أطفاله ووالديه العجوزَيْن المُتناوبين في الأمراض.. قال لها صراحةً: لا طاقة لي لتحمُّل المزيد، لا طاقة لي لمساعدتك.

خثرها كلامه وشعرت أنه يحولها من إنسانة إلى عصيدة من الألم، وهي لا تنسى يوم فاضت روحها بالكتابة إليه تشكو له آلام روحها المعذبة في وطن نازف، كيف أجابها برسالة صعقتها: «كفى، كفى، كفى.. فكّري بي، إذا كنتِ أنت متعبةً فأنا أكاد أنهار من المسؤوليات والتعب. احتاجت إلى أيام كي تمتص الصدمة، ثم قبلت رغمًا عنها أن تذعن للواقع القاسي، الذي يُمكن تلخيصه باختصار:

لا أحدَ يستطيع أن يدعم أحدًا ويُحسّ به في باريس.

وشعرت أنها تُطوع نفسها تدريجيًّا وتُقولبها لتبني علاقةً جديدةً مع أخيها وأختها أيضًا التي لم تكن تقل انشغالاً ومسؤوليةً عن أخيها، ابتكرت معادلة للتعامل معهما -مع محيطها الضيق كله- بأن تُخفي أعماقها الحقيقية وتتظاهر بأنها على ما يُرام.. كيف استطاعت أن تحبس الألم الحارق في أعماقها وتُخفيه عن أقرب الناس إليها! هل تخيلت يومًا أن تكون عزلاءَ وحيدةً في تحمُّل آلامها النفسية المُدمرة؟

صارت الأحاديث سطحيةً عامةً وتثير دومًا "شيئًا" من قرفها؛ لأن كل ما يبتعد عن الجوهر يُثير قرفها، الرحمة الوحيدة التي عرفتها في أيامها الباريسية هي رحمة النوم، تتوق إلى النوم، تنتظره ما إن تستيقظ، تريد أن تركل ساعات يومها لتنام، لتغرق في غيبوبة اللاشعور، ومع الوقت أصابها قلق أقرب إلى الذعر؛ فالرغبة بالنوم أشبه بالرغبة بالموت. هل تتوق أعماقها للموت حقًّا؟ ما نفعُ حياة يعيش فيها الإنسان كارهًا عيشَه شاعرًا بالغربة والذل والوحدة وانعدام الأمل كل لحظة! لماذا عليها أن تنسلخ عن وطنها رغم جراحه وتنتظر أشهرًا في باريس للحصول على بطاقة الإقامة التي تُمكّنها من البقاء في فرنسا ولقاء أحبائها، وخاصةً ابنتها.

وتلك اللحظات المُخزية من الانهيار العصبي والنفسي -حيث تشعر أن جلدها يضيق عليها، وأنها تتلوَّى داخله متوهجةً كجمرة من الألم ولا مُعينَ لها، ولا تستطيع رفع سماعة الهاتف والاستنجاد بأحد؛ لأن الكل سيقول لها: كفى، كفى، كفى... لا طاقة لنا على الاحتمال- بالغةُ القسوة؛ حيث تكون عزلاءَ ووحيدةً في بيت أختها أو بيت أخيها.

وغالبًا تكون ثمة خادمة من أصول إفريقية تنظف البيت، تتمنى لو ترتمي بحضنها وتقول لها: أنجديني يا أختي في الإنسانية، لعلك تتألمين مثلي! ساعديني، أرجوك ساعديني؛ فأنا أموت من الألم والعذاب.. لكنها تبتكر عدة سيناريوهات للتحدث مع الخادمة ولا تقوم بأي فعل! تتأمل تلك المرأة، ترى ما ظروفها؟ ما الذي قذف بها لتعمل خادمةً في فرنسا، ألا تحن لوطنها الأم؟ هل تعاني من الوحدة والتخلي مثلها، ولماذا يمر الوقت وكلتاهما صامتة! هل الصمت هو اللغة الرسمية في فرنسا؟ ما أسهل وجع الجسد مقارنةً بوجع الروح!

ترتمي على السرير تتخذ وضعية الجنين، تتأوه بصمت وتتلوى من أوجاع روحها، لم تعد قادرةً على التحمل، لم يعد باستطاعتها احترار هذا العذاب اليومي القاتل، كل يوم هو اجترار لليوم الذي قبله والذي بعده.. وحيدة، توحّد، مرارة وعذاب.. هذا هو حقيقة عيشها في باريس.

وفي المساء حين يعود الإخوة المنهارون من التعب يكون بانتظارهما تدريس الأولاد، وتحضير العشاء، وتبادُل بعض العبارات بتعب ثم النوم. صارت مع الوقت تختلق أكاذيبَ؛ إذ تدّعي أنها التقتْ فلانًا أو فلانةً من أصدقائها، بينما تكون متكومةً في الفراش تئنّ من ألم الوحدة وعقارب الزمن تسخقها، أو تكون هائمةً في الشوارع كالمشردين لا تبالي أن تلبس حمالة نهدين، ولا أن تتزيَّن قليلاً، بل تُصر أن تبدو بائسةً وتعيسةً كي يتلاءم شكلها مع مضمونها.

ويهبط الليل وينامون، وتتصاعد في روحها الرغبة بالصراخ، وإيقاظهم والصراخ بهم: أنا أتألم، أنا إنسان يتألم.. تخشى حقيقة أن

ينفلت الصراخ منها، تمشي حافيةً إلى المطبخ، تبتلع عدة جرعات من النبيذ من الزجاجة الموضوعة على الطاولة.

تتذكر الأنخاب الفاترة التي تمنَّوها لبعضهم أثناء العشاء، وختام العشاء صحن الأجبان المتنوعة، في لاذقيتها الحبيبة ثمة نوع واحد من الجبن، هو الجبنة المسنرة، تأكلها كل صباح بتلذذ، النبيذ الحامض يخرش معدتها، لكنها تُقنع نفسها بأنه وحدَه سوف يساعدها على كبت صراخها كي لا توقظهم، خاصةً زوج أختها الفرنسي الذي تسميه الغريب، لا رابط على الإطلاق بينهما، لعل حاجز اللغة يلعب دورًا، لكنها تؤمن أن السبب الرئيس في تباعدهما هو عمله اللاإنساني؛ إذ يخرج من البيت السابعة صباحًا وأحيانًا السادسة والنصف صباحًا ليعود محطَّمًا من التعب الثامنة مساءً، يدخل رأسًا إلى الحمام يأخذ دشًّا ثم يتحنط أمام جهاز الكمبيوتر يتابع عمله. يا لعبودية العمل في باريس، في الدول التي تُسمى عظمى في حقوق الإنسان!

المحنة الكبرى في الليل حيث يستيقظ الوطن في ثنايا الروح، حيث يطلع الفجر من قلب الليل وتبدأ الوجوه الحبيبة بالتقاطر، وجوه الأصدقاء وشكواهم وقلقهم على أولادهم، وغلاء المعيشة الطاحن، وأسماء الموتى، والنشاط الاجتماعي الوحيد الذي هو التعازي، أصوات مولدات الكهرباء التي تسميها «الجعير»، انقطاع الكهرباء والبرد القارس أو الحر الخانق في الصيف، الذل الذي ما بعده ذل.. لكنها تنتمي إلى تلك اللوحة.. أنا سورية، أنا سورية.

تنفلت ببكاء حارق في قلب الليل كاتمةً صوتَها بمنشفة تُحكم لصقها بفمها، وبينها وبين النيام جدار رقيق، وسوف يطلع الصبح

ويقولون وهم يتثاءبون: صباح الخير، ولن يحزر أحد كيف كان ليلها ولا وجع معدتها من حموضة النبيذ، ولا ذلك الدوار الأشبه بعدم التركيز بسبب الدواء المضاد للقلق، ولا الذعر الذي ينتابها من أن تسقط أرضًا فجأةً مغمًى عليها، فيتفاجؤوا بإغمائها. لكن، لكن، لكن.. تكرر تلك الكلمة مرارًا قبل أن تقول عبارتها الوحيدة التي تقوّيها: «لكن النساء ضعيفات، والأمهات قويات».

يحضر وجه الحبيبة إلى خيالها طاردًا كل العتمات، يحضر وجه الحبيبة التي تشق طريقها في بلد الغربة وحيدةً وشجاعةً ومتفائلةً وتقول لها كل صباح: بونجور مامي. عبارة تُشكلها، وتُشعرها أنها تتحول من هلام إلى إنسانة قوية وقادرة على مواجهة كل صعاب الحياة. من أين تتفجر كل تلك القوة في روحها وذلك الأمل! وما الأمل إلا قوة؛ لأجلها سأكافح اكتئابي، لأجلها، لن أسمح لليأس أن يهزمني، ولا للموت أن يغويني. يجب أن نستمر في الحياة طالما هناك شخص واحد على الأقل يحتاجنا، إنه سبب كافٍ للاستمرار.

تتفرج على تشققات روحها المتصدعة من الألم كيف تلتئم وكيف تصبح مُتماسكةً وقوية، فثمة صبيّة تعبدها في الجانب الآخر من العالم، صبيةٌ كانت ذات يوم جنينًا آمنا في رحمها، ثم غدت طفلةً سعيدةً؛ لأنها تثق أن ثمة أمًّا تحبها وتحميها، كيف تنسى المعاني الرائعة التي تحرضها فيها ابنتها حين كانت تلميذةً في المرحلة الابتدائية، وكيف كانت تمر بها إلى المدرسة لتصطحبها إلى البيت فتسرع ابنتها إليها مادةً يدَها الصغيرة لتلتقطها كمن تسلمها مصيرها وقدرها. كيف بإمكانها أن تخذل تلك الصبية الرائعة وتُسبّب لها الأسى حين ترى أمها منهارةً وغير قادرة على التحمل.

لن أموت إلا واقفة، لن أموت إلا واقفة. هذا ما كانت تقوله لنفسها دومًا كي تستمر في المعركة الشرسة بين اليأس والأمل.

الوهن، الوهن الذي يهدّ كتفيها ويُشعرها أنها تكاد تفقد توازنها، الجهد الجبار لتقف على قدميها وتمشي متأملةً المارّة، محاولةً أن تعزّي نفسها بهم بأنها مثلهم تمشي، تمتد يدها إلى حقيبتها، تخرج زجاجة العطر الصغيرة، ترش العطر على عنقها، تحس أنها جثة تتعطر، يا لتجليات الكآبة! كيف تشعر أنها جثة، المخازن الفخمة على مد النظر، تمسحها بنظرة شاردة ونعاس ثقيل ثقيل، اللعنة على الدواء المضاد للقلق، لا يفعل شيئًا سوى أنه يجفف دموعها ويجعلها هادئةً مُخدرةً، كما لو أنها تصحو من غيبوبة، لا يهم، لا يهم، هذا ما تؤكده لنفسها، لا يهم سوى أن تنطلي عليهم الأكاذيب وأنها بخير وحالة نفسية جيدة، أما الأعماق المُخربة والمنهارة فهذا شأنها وحدَها،

أحيانًا تتخيل أنها لن تستطيع الصمود طويلاً وستنهار فجأةً، ستموت فجأةً، وتتخيل دهشتَهم واستغرابَهم وكلماتِهم: كانت بحالة ممتازة تمشي وترتاد المقاهي، وتكتب مقالات باستمرار، وتقرأ وتتزين وتشتري ملابس، ولديها أصدقاء.. لن يخطر ببال أي من أختها أو أخيها أن والدهما العجوز الذي تجاوز التسعين من عمره وكان في المشفى لأنه أصيب بكسر في فخذه واستحوذ كل اهتمامهم، وكانت ترافقهم لزيارته في المشفى، أن ثمة إنسانة مدمرة نفسيًّا تمشي إلى جوارهما لتطمئن على عجوز.

كانت تشعر بسخرية مريرة وهي تُحدّث نفسَها ساخرةً: العجوز التسعيني يحتل كل اهتمامهم، وهي التي لا تزال في عمر

العطاء والنضوج منهارة عصبيًّا ونفسيًّا وتعاني بصمت يهدّها هدًّا ولا مُعينَ لها. كانت تشعر أحيانًا بالنقمة على العجوز لفرط اهتمامهم به، بينما هي غائبة تمامًا عنهم، كما لو أنها عضو زائد.

وتتساءل: ترى ألا يخطر ببالهم بماذا أشعر؟ وما أعاني؟ أيحبونني حقًّا؟ أم أن الحب أيضًا يحتاج إلى متسع من الوقت. استوقفتها تلك الفكرة وأسرتها وغاصت في تأملها: هل الحب يحتاج إلى متسع من الوقت؟ أختها وأخوها لا يملكان الوقت ليُحبّاها، ليتساءلا: هذه الإنسانة التي تعيش بيننا ترى بماذا تشعر؟ ما معاناتها؟ هل نستطيع مساعدتها؟ لكننا لا نستطيع؛ لأن العبارة التي لخصت كل شيء هي: كفى، كفى، كفى. كيف يطلب كسيح من كسيح أن يساعده؟ وهي بنظرهم شابة وقوية وتملك همةً من وقت لآخر لتقوم بنشاطات عديدة، أما الأب العجوز الذي تجاوز عقده التاسع فيحتاج إلى كل العناية الفائقة، وتأتي ممرضة كل يوم لتحممه وتبدل ثيابه، وممرضة أخرى تعطيه الدواء، وأخرى تقلم أظافر يديه وقدميه؛ يجب أن يمتد العمر إلى ما لانهاية، أن يُمط ويُمط حتى ينقطع بقدرة قادر.

كانت تتأمل والدها العجوز كم اهترأ وكم تبدّل، كنبته ذابلة لا نفع في نفخ الحياة بها، تتأمله بحنان أقرب إلى الشفقة وتقول له في سرها: أنا مريضة أكثر منك، أنت رِجلك تؤلمك وأنا روحي مريضة، روحي يا أبي مذبوحة من الوريد إلى الوريد كما يُذبح السوري، وكما ينزف الوطن.

لكن لا أحد يبالي بالسوريين، لا أحد يبالي بألمي، بل كل ما بإمكانهم تقديمهم لي نصف ساعة من وقتهم مساءً نحتسي كأس نبيذ أو بيرة ونتحدث أحاديثَ لا معنى لها.. كتلك الأمسية التي كانت

فيها في قمة معاناتها وأزمتها النفسية ودَعتها أختها إلى مطعم، وكان الحديث عن فأرة دخلت العيادة، وكيف قضت ساعةً تحاول قتل الفأرة، ثم ذهبت إلى السوق واشترت مصلاةً حتى تصطادها.

كانت تنصت بذهن شارد لهذا الحديث وأعماقها مشطورة إلى قسمين: قسم يصور الفأرة المُعتبرة، وقسم يُصور امرأة سورية منهارة عصبيًّا ونفسيًّا، وشعرت أن الفأرة تتفوق عليها.. كيف عليها أن تحتمل هذا الزمن الذي يسحقها كل لحظة كما يسحق أحباءها السوريين، هل مُعضلة الإنسان الحقيقية هي الزمن؟ كيف سيُمرر الإنسان زمنًا وحشيَّ القسوة والإجرام! كيف عليها أن تسمع وترى المُهجَّرين والقتلى والمذبوحين، وأنت ترى لامبالاة العالم كله بما يجري في سوريا، وهي عزلاء ووحيدة وأقرب المقربين يقولون لها: كفى، كفى، كفى!

لماذا لا تموت؟! لِمَ جسمها وروحها يقاومان بتلك الشراسة لمجرد البقاء على قيد الحياة، لمجرد الوله بوجه تعبده -وجه ابنتها- لمجرد أمل لأن ترى أطفال سوريا يضحكون لأن معجزة هبطت من السماء عليهم. ما معنى عمر يمضي بمجرد الكفاح والمقاومة لظروف وحشية القسوة، كأسطورة سيزيف الذي كان كل يوم يحمل الصخرة من قاع الوادي صاعدًا بها إلى قمة الجبل.. كفاح يهدّه هدًّا ولا مجدي، لكنه يتكرر كل يوم إلى ما لا نهاية حتى ينتهي العمر.

***

يوم آخر.. يوم جديد

لعلها مُعجزة أن تنام بعمقٍ ليلاً بطوله دون أن تقطع الكوابيس نومَها، أفاقت مذهولة، وشعور غريب بالراحة يغمرها! لم تصدق شعورها، أضاءت الغرفة كما لو أنها تريد تفحُّص شعورها بالراحة على النور، سربلها الشعور اللطيف الحاني، وأحست باسترخاء لذيذ في كل عضو من جسدها.. ترى هل يكفي النوم العميق كي يتغير مزاج الإنسان؟!

بدا كل شيء حولها لطيف ويبعث على البهجة، حتى حين قصت أظافر يديها بالمِقرض أحسّت بسعادة، لن تفوت ذلك الشعور المُباغت والذي فسّرته أنه مكافأة لها على صبرها في تحمُّل القهر والألم، لبست ثيابها على عجل وعقصت شعرها بمِلقط بلاستيكي دون أن تمشطه، كل حركاتها عجولة كما لو أنها تعصر الفرح من الزمن، فالزمن اليوم مُختلف، اليوم جديد، واليوم يختلف عن الأيام التي قبله، فيه الكثير من الحيوية والفرح.

حملت جهاز الكمبيوتر وخرجت من عيادة أختها حيث تنام، وأول ما طالعتها لوحة شاب إفريقي يكنس الأوراق الذهبية المُصفرّة، للتوّ أفرز دماغها عبارة: يكنس أيامي.. آلمها هذا الربط السريع بين الأوراق المصفرة الذابلة وأيامها -كما لو أنه لا مجال للشك على

الإطلاق بين المشهدين-، لكنها طردت الشعور الحزين فلن تضيع مُعجزة اليوم المُختلف السعيد، أشعرتها كلمة سعيد بالخجل وبالسخرية معا.

انتحت زاويةً قصيَّةً في مقهى رصيف، طلبت قهوةً وماء، أحضرت نادلة صبية القهوة مع كأس صغيرة من الماء، طلبت المزيد من الماء فأحضرت النادلة زجاجةً كبيرةً من الماء، لكَم تأثرت لكرمها.. كان كل شيء يُضيء في نفسها! ترى ما السبب؟! ولماذا تُريد معرفة سبب كل شعور وكل تصرف، وخلفية كل كلمة.. لتعطِ نفسها للحياة وكفى.

ولأن كل شيء يُضيء في روحها هذا الصباح، فقد أضاءت هذه العبارة على نحو كبير، وغاصت في تأمُّل معانيها: «لنعطِ أنفسنا للحياة وكفى»، وبدت لها تلك العبارة تصلح عنوانًا لرواية قادمة، لديها رغبة مُوجعة أن تكتب رواية، لكنها لا تعرف ماذا ستكتب؟ فمنذ بداية الثورة السورية وهي تعيش كآلاف السوريين، مشوشة التفكير، ومُضطربة المشاعر، وأقرب إلى الانهيار، حتى أن الموت أصبح يُغويها لتنهي مشاعر القهر والألم.

لكن ثمة مفاجآت في هذه الحياة الغريبة، المولعة بصدمنا والسخرية من توقعاتنا، فها هي اليوم سعيدة ومُشرقة، وتُحسّ بحنان بالغ اتجاه الشاب الذي يكنس الأوراق الصفراء المتساقطة، أو يكنس أيامها -لا فرق.

الشمس تغمر المكان، وتضفي لمعانًا ساحرًا على الشعر الأشقر لشابة تجلس في مقهى رصيف مقابل، ترى هل هذه الشابة عاشقة؟ يا للرغبة بالفرح التي تتفتّق في روحها لدرجة تشعر أن عليها أن

تتعرف وتتفحص تلك الإنسانة المُبتسمة السعيدة التي صارتها «كافيه ريتشارد».

معظم مقاهي الرصيف في باريس تكتب في قاع فنجان القهوة عبارة «كافيه ريتشارد»، أحست بفرح وغبطة من تلك العبارة، وحملَها الشوق إلى اللاذقية، إلى المدينة التي تسكن فيها روحُها، وتاقت إلى مقاهي الرصيف البسيطة فيها، وأنواع معسل الأركيلة، والصبي بالغ النحول الذي يُشعل الفحم ويسعل سعالاً خشنًا كأنه مصاب بالسل.

تاقت إلى مهرجان القبح والبسطات الواسعة التي تعرض ما تسميه -الكراكيب-، أشياء لا لزوم لها، لعب أطفال من أردأ وأرخص أنواع البلاستيك، مقصات ومسابح، أنواع من التعاويذ بعيون زرقاء جاحظة وكبيرة.. اشتاقت لكل تفصيل في اللاذقية، حتى لرائحة البالوعة في الزقاق الضيق الذي تعبره مرارًا كل يوم.

اشتاقت حتى لكوم القمامة الطافحة من الحاويات، والتي تدل أن ثمة ناسًا يعيشون ويأكلون ولم يُذبحوا بعدُ بالسكين أو الساطور، ولم يموتوا تحت التعذيب، ولم يغرقوا في البحر وهم يعبرونه بقوارب الموت.. لِمَ لا تكون القمامة علامة حياة؟

وكما باغَتَها الفرح هذا الصباح في اليوم الذي أسمته: «يوما جديدا»، أربكتها دموعها التي فاضت دون أن يرفّ لها جفن، ودون أن تتوقع أنها ستبكي.. فجأةً أحاطتها وجوههم، طوقتها بشكل كامل وجوه أصدقائها وأحبائها الذين جمعهم السجن، سُجناء الرأي العظيمين الرائعين الذين قضى كل منهم ما بين عشر سنوات وعشرين سنة في السجن.

وجدت نفسها تُفكر في رياض الترك الذي سُجن سجنًا مُنفردًا لأكثر من سبعة عشر عامًا، ترى كيف استطاع أن يحتمل؟! وما إن أفرج عنه وصرّح على قناة الجزيرة بعبارة: «مات الديكتاتور»، بعد وفاة حافظ الأسد، حتى أعادوه إلى السجن.

عادت الوجوه الحبيبة تُطوقها، إنهم عصب حياتها، لا تنفك تُفكر بهم، تحسهم بطانة روحها، ومنتهى أفكارها، منهم يبدأ تفكيرها وبهم ينتهي.

كم من مرة رغبت أن تقف في وسط الشارع وتصرخ بأقصى طاقة حنجرتها على الصراخ: هل تعرفون أيها الناس، وأيها المواطنون، أن السجون في سوريا تغصّ بالشبان والرجال يُعذبون ويُهانون، وبعضهم يموت تحت التعذيب؟! أتعرفون تلك الحقائق؟ أم أنكم لا تريدون أن تعرفوا، وتريدون نفيهم خارج حياتكم كي تتابعوا العيش في قفص بدون كرامة ولا حرية؟!

كم كان يطيش صوابها فعلاً حين تلتقي بشرًا ليس فقط لا يريدون أن يفكروا ويتضامنوا -على الأقل- مع معتقلي الرأي، بل كانوا يقفون منهم موقفًا معاديًا، حتى أن أحد معارفها -حين كانت تدافع عن أحد سجناء الرأي الذي سُجن تسعة أعوام بتهمة الدفاع عن حقوق الإنسان، وسُجن أخوه ثلاث سنوات لأنه لم يُخبر عنه- قال لها: كفى دفاعًا عنه، هل هو مجنون حتى يتحدى فِكر حافظ الأسد!

لم تعرف كيف سترد عليه، لكنها شعرت بأن أعماقها تتقصف وتتهاوى في هاوية معتمة لا قرار لها، أحست بخوف أقرب إلى الذهول والذعر وهي تستمع لهذا المنطق الظالم والمُزور للحقائق.. أي

عار أن يشهد الإنسان مع الباطل، ويقف مع الظالم، ويتنكر للمظلوم والمدافع عن حقوق الإنسان؟! لكن حين يكون الخوف هو أساس الحياة فالخيانة هي النتيجة، خيانة الحق.

كانت تشعر أنها مدينة لهؤلاء الأصدقاء الذين قضَوْا زهرة شبابهم في السجن، تقول لهم بفخر وقناعة تامة: أنتم تاج رأسي. تشعر أنهم سُجنوا نيابةً عنها وعن كثيرين غيرها، ولعل الصدفة وحدَها حمتها من السجن.

أحد أصدقائها الذي سُجن خمس سنوات كان يقرأ منشورًا مُعاديًا للنظام أعطاه إياه للتوّ أحد معارفه، وتم القبض عليه ولم يكن قد أكمل قراءة سطرين من المنشور، كان يمكن أن تكون بدلاً منه لو أن أحدًا ما أعطاها منشورًا.

هل بهتت الشمس ولم يعد الشعر الأشقر للصبية الجالسة في المقهى المقابل يلتمع؟ أم أن وجوه الأصدقاء التي طوقتها جعلت شعورها أشبه بطفرة من الفرح غير المبرر، والذي لا سببَ حقيقيًّا له سوى مجرد نوم عميق، هو ما ردها إلى الواقع، الواقع الذي لا يمكن الهروب منه حتى لو جلست في كل مقاهي باريس.

كم هو قصير وزائف هذا الفرح الصباحي الذي سرعان ما انطفأ! اضطرت أن تمسح دموعها التي لا ينتبه إليها أحد في المقهى، وعلى الأغلب لا يبالي بها أحدٌ، وضعت كومة من المناديل الورقية المُجعدة على عينيها تتلقف دموعها، تتابعت وجوه الأصدقاء سجناء الرأي مبتسمين ومواسين لها في غربتها القاسية الاضطرارية، هدّها شعور بالإنهاك مفاجئ، ولم يبقَ تحت أجفانها سوى صورة الشاب الإفريقي الذي يكنس الأوراقَ اليابسة الذابلة وأيامَها.

«من يُعين إعاقتها؟».. بعد أقل من ساعتين من شعور البهجة الصباحية والفرح المُراوغ، وجدت نفسها تتحول إلى سؤال يُخيفها ويتحداها وهو: «من يُعين إعاقتها؟».

في الواقع، لم يكن في باريس الفاتنة من يُعين إعاقتها، وحدها مثالية ونقية، «ما حدا لحدا»، هذا هو الشعار الذي آمنت به في باريس، كل يوم عليها أن تبتكر كذبة جديدة كي تتهرب منهم، كي تخفي وجهها الحقيقي الحزين والمُتجهّم عنهم، لم تعد تطيق التمثيل، وهم يبتعدون أكثر فأكثر يومًا بعد يوم، تتأمل حياتهم بنفور وسخرية، وتسميهم «عبيدَ العمل الأنيقين»، الذين يقولون لها: كفى، كفى، كفى.. لا نستطيع أن ندعمك ونستمع إليك، يُمكننا أن نتحدث عن الفأرة والأرنب ذي الشهرين الذي اشترته ابنة أخيها واحتل مساحة مهمةً من الأحاديث.

كل يوم لديها محنة صعبة، وهي: كيف ستمرر ساعات اليوم؟ لقد تركت عقارب ساعتها على توقيت سوريا، فزمنها سوري، وتشعر بعداء تجاه عقارب الساعة الفرنسية، كما لو أنها لا تعترف بالزمن الفرنسي، كم يكويها القهر وهي تعي أن عليها أن تنتظر يومًا تلو يوم وشهرًا تلو شهر من أجل الحصول على بطاقة الإقامة! لولا الوجه الحبيب لما تحملت؛ فرُوحها تخفق انعكاسًا لخفقان روح ابنتها.. لكنها تعرف أنها لن تموت إلا في اللاذقية، إلا في سوريا الحبيبة، وسط أحبائها الذين دفعوا سنواتٍ من عمرهم في السجن، لا تريد أن تعيش إلا وسطهم.

اقترب منها شاب أسمر أجعد الشعر، وببساطة مُحببة وكأنه يعرفها قال لها بالعربية: مرحبًا، عرفت أنه لاحظ كتابتها بالعربية،

رحبت به، مدَّ يده مُصافحًا وقال: اسمي مُراد. لم تشأ أن تُفصح عن اسمها، ابتسمت وقالت أهلاً. سألها إن كان بإمكانه أن يتحدث إليها، وإن لم يكن لديها مانعًا أن يتبادلا الحديث؟ رحبت به؛ كم كانت بحاجة إلى إنسان سوري يحمل رائحة وطنها الحبيب - كما أحست، أصر أن يدعوها إلى فنجان قهوة، لكنها رفضت.. بدا من لباسه أناقة الفقراء، واسترقت نظرةً إلى نعل حذائه المهترئ.. أجابته مازحةً: الأكبر سنًّا هو من يدعو، وأنا بمثابة أمك. قبِلَ وهو يشكرها بلطف.

أخبرها أنه هرب إلى إسطنبول؛ حيث انتظر شهرين في ظروف بالغة السوء حتى تمكّن والده من تأمين مبلغ خمسة آلاف دولار للمهرّب الذي قام بتهريبه مع مجموعة سوريين إلى اليونان، ومن اليونان وصل عن طريق مُهرّب آخر إلى فرنسا.

أخبرها أنه كان طالبًا في كلية التجارة، في السنة الثالثة، لكنه اضطر إلى قطع دراسته والهروب من الجندية، وأن أخاه مجند في الجيش السوري في حمص، وأن والدته أدمنت الحبوب المهدئة لدرجة أنها أصبحت كالمخبولة خوفًا من احتمال استشهاد ابنها، ووصف لها نوب انهيارها العصبي كلما تأخر في اتصاله بها، تبدأ بلطم وجهها، وشد شعرها، وهي تصرخ: لقد استشهد، لقد استشهد.

سألته: لِمَ لم يحاول أخوك أن يهرب أيضًا؟ فقال: إنه حاول لكن الوضع صعب، كما أن تأمين مبلغ للمهرّبين يتطلب من الأسرة أن تبيع الكثير من أثاث المنزل وأدواته الكهربائية، إن لم يتطلب بيع المنزل البسيط أساسًا.

أخبرها أنه يعيش في مكان بائس للغاية مع شلة من المهاجرين، وأن الدولة تقدم لهم من حين لآخر ألبسة مُستعملةً ومعلبات طـــون وسردين وأجبان رديئة.

تغيرت نظرته، وكزَّ على أسنانه؛ أحسَّت أنه بحاجة أن يبـــوح بسر يعذبه، لعله تلقف توقَها إلى معرفة سره.. حدق في عينيها وقال لها: لو تعرفين كم أكرههم! سألت: من تقصد؟ أجاب: الفرنسيين. سألته: لماذا؟ قال: أكرههم وكفى.. لأنني اضطررت أن ألجأ إلـــيهم. فأجابته: لكن ما ذنبهم؟! لولا الأوضاع المأساوية في سوريا وخوفك من الاستشهاد في الجندية لما وصلت إلى فرنسا! رد: أكرههم.. لـــو تعرفين كيف أعبر عن كرهي؟ سألته: كيف؟ ضحك بمرارة وقال: لا أكف عن السرقة. بحلقت به مصعوقةً وقالت: هل أنت مجنون؟! ماذا لو ضبطوك؟! ثم إن السرقة عيبٌ وجريمةٌ. ضحك بتلـــذذ ومـــرارة وقال: سرقتهم حلال.. أريد أن آكل مثلهم أكلاً لذيـــذًا، أريـــد أن آكل كل أنواع الأجبان الغالية واللحوم والأسمـــاك. وقاطعتْـــه: و لم يضبطونك، و... لم يتركها تُكمل، قال لها: أكثر من مئة مرة سرقت من السوبر ماركت و لم يضبطوني ولو مرة واحدة.

أحست براحته بعد أن باح بسره، وتعجبت من الحريـــة الـــتي يتمتع بها الغرباء، وربما لولا كونها غريبةً في بلد الغربة لما تجرأ وبـــاح بسره، واحتارت في تحديد مشاعرها تجاهه، إلى أي حـــد يمكـــن أن تلومه؟ إلى أي حد هو مسؤول عن ظروفه؟ وأي قهر وظلم أحســـه حين اضطر أن يقطع دراسته ويغادر وطن المـــوت والقتـــل، وطنـــه الحبيب سوريا، الذي تحول إلى ساحة وغى؟ أي قهـــر أحســـه وأي ظروف تعرضت لها أسرته كي يؤمّنوا مبلغًا طائلاً للمهرّب كي يُهربه

في قوارب الموت، وكان ممكنًا أن يموت غرقًا؟! وأمه التي أدمنت الحبوب المهدئة خوفًا على ابنها في الجيش السوري الذي هو في كل لحظة احتمال شهيد! هل تلومه؟!

لكنها حذَّرَته من استمراره في السرقة؛ لأنه إن ضُبط فمصيره السجن، وربما يرحلونه من فرنسا. ضحك بمرارة وهو يمسح ما يشبه الدمعة تجمعت في زاوية عينيه، وقال لها: أشكرك. لم يتواعدَا على لقاء آخر، ولم يسألها عن اسمها.. كانت بمثابة أمه، آمنت أنه أراد أن يرى من خلالها أمه وأن يبوح لها بوجعه.. تأملَتْه يقطع الشارع غير عابئ بإشارة المرور، ندمت لأنها لم تطلب رقم هاتفه أو عنوانه.

أحست بوجع حارق في معدتها، كان وجع شعب ووطن يتحول إلى حرق في أحشائها، ولكنها استسلمت للوهم واتهمت قهوة ريتشارد بأنها السبب.

***

هنا وهناك

«أيهما هنا؟ وأيهما هناك؟».. تؤمن أن الـ «هُنا» هو الأصل، أي: اللاذقية، والـ «هناك» هو الاحتمال الثانوي أي: فرنسا، وهي تنتمي إلى الهُنا، وتنقم على الظروف التي أجبرتها أن تقضي أيامًا وأشهرًا في باريس من أجل الحصول على بطاقة الإقامة.

لكن هذا الصباح الخريفي الماطر بغزارة عرى أعماقها وصفعها بحقيقة عيشها في اللاذقية، خاصةً في الشهرين الأخيرين اللذين سبقا سفرها إلى باريس.. لكم تُخيفها الورقة البيضاء! لكم تتحداها! هل تجرؤ -حتى بينها وبين نفسها- أن تعترف وتستذكر حقيقة عيشها في اللاذقية؟! حيث كانت الحدود تغيب بين ساعات الليل وساعات النهار، أو حتى بين الأيام، فيغدو الزمن أشبه بعصيدة غثة عليها ابتلاعها كل يوم.

ستون يومًا من الجحيم والانهيار عاشتها قبل سفرها إلى فرنسا، متكومةً على مقعد في الصالون الفسيح المُترف والأنيق الذي تتوق أحيانًا أن تخترقه قذيفة لتحطم هذا الجمود الذي يعني الموت.. أين الأصدقاء؟ أين هم؟ ولم يبقَ لها من مُعين سواهم؟ لم يبقَ لها من يواسيها سواهم.

تتصل بصديقة بعد تردد، لاعتقادها أن صديقتها هي من يجب أن تبادر بالاتصال، تُقاوم وتتظاهر باللامبالاة، وأنها لن تتصل، لكنها ترضخ لحاجة الأنس والدفء الإنساني وتتصل، تحس بتسارع دقات قلبها وهي تنصت للرنين، يأتيها صوت صديقتها مُتعبًا، الهموم الحياتية في تزايد وما عاد بالإمكان تحمُّل المزيد، تسأل صديقتها عن أخبارها، تجيبها بأنها مكتئبة ولا تغادر المنزل، وبأنها تنتظر أخبارًا من ابنها الذي هرّبته إلى ألمانيا؛ لأن السفارة الألمانية لم تقبله طالبًا، و لم تعطه فيزة طالب، بل أجبرته أن يصلها عن طريق قوارب الموت، بعد أن يكون قد دفع آلاف الدولارات للمهرّبين.

تُحسّ بقشعريرة تعبر جسدها، تولدها فيها نغمة الصوت الحزين لصديقتها، نغمة خاصة حديثة العهد هي نغمة الاستسلام، لم تكن صديقتها وحدَها التي استسلمت لقساوة الظروف ووحشيتها والظلم المتواصل الذي يجعل الناس بحالة كآبة لطيفة تدمغ شخصيتهم، بل لاحظت أن معظم الناس حولها ومعظم أصدقائها استسلموا للواقع الخشن القاسي.

إحدى صديقاتها كفت عن مبادرة الاتصال بأي صديقة، واعتكفت في منزلها لا تغادره، صِلتها مع الوسط الخارجي التلفاز، تتابع إعلامًا مُوجّهًا مواليًا للنظام، تقول إنه يعطيها راحةً نفسيةً كبيرة.. ومن حين لآخر كانت تزورها وتتأمل ملامحها الذابلة المُرتشحة بالأسى والحزن والاستسلام، لم يعد يعني لها هل انقطعت الكهرباء أم لم تنقطع؟ هل صار سعر البنزين أغلى؟ هل ازداد شح المياه؟ هل نهاية العالم تقترب؟ هل هي حية أم ميتة؟ وما تعريف

الحياة؟ وما تعريف الموت؟ وما الذي يمنع من تطابق التعريفين؟ ماذا لو كان معنى الحياة في سوريا هو ذاته معنى الموت؟

الكل متقوقع في شرنقة آلامه وأحزانه، ويمنعه ضيقه المادي أن يقصد المقاهي.. لكنها -كما يبدو- من نسيج مُقاوم للاستسلام، لا تقدر أن تتحنَّط على كرسي في الصالون، ولا أن تترك لعقارب الساعة أن تسحلها وتسحقها، تحس أنها على وشك الانهيار؛ فلا شيء يحفز على الفرح والحياة.. يمر يومها دون أن تمشط شعرها، ودون أن تخلع بيجامتها.. يمر يومها ميتًا متألمًا مثل روحها.

مدينة ميتة تعبر سماءها طَوال الوقت الطائراتُ الروسيةُ التي تُحلّق على علوٍّ منخفض لدرجة تشعر أن جناحها يكاد يلامس حافة النافذة أو الشرفة.. تسير في الشوارع حيث تزينها تلال القمامة الطافحة من حاوياتها، أو المتكومة على زوايا الشوارع دون حاويات.. تمر قرب سينما الكندي التي طالما حضرت فيها أرقى وأجمل الأفلام السينمائية أيام السبعينيات، تحوّلت كل صالات السينما في اللاذقية إلى أبنية مهجورة، أو أبنية أمنية، أو معتقلات، وخاصةً سينما أوغاريت التي صارت معتقلاً، وأحيطت بسياج كبير من البراميل المصفوف فوقها أكداس من عجلات الشاحنات الضخمة السوداء، ومن قلب العجلات تنبثق نباتاتٌ خضراءُ شاحبة هزيلة كأنها تعبير سريالي عن سجن المواطن السوري.. جعير المولدات، والدخان الأسود كريه الرائحة المنفلت منها يُفسد الهواء.. وهي تهيم في الشوارع وحيدة تصارع على عدة جبهات، تصارع الزمن وجعير المولدات وأكوام القمامة، ووحدها المُرعبة التي أخذت تُرعبها كأنها وحش يُكشر عن أنيابه ينوي افتراسها.

لأول مرة في حياتها ترتعب من فكرة أن الوحدة تورث الجنون، ألا تخشى صديقاتها وأصدقاؤها الجنون مثلها، والهاتف الأخرس والليل الأسود لأنه بحالة حداد على القتلى؟!.. ليل سوريا أسود لأنه بحالة حداد على القتلى السوريين مهما تنوعت أساليب قتلهم.

وهي اكتشفت طريقة مؤكدة للقتل، وهي القتل قهرًا.. تعود إلى البيت محطمةً من الإحباط واليأس، تعدّ الساعات كي تنام، ما إن تنقطع الكهرباء التاسعة ليلاً حتى تحكم وضع سدادات الأذنين في أذنيها وتنام متجاهلةً صوت جعير مولدات الكهرباء.

تستيقظ الثانية ليلاً؛ فجسدها لا يحتاج إلى كل تلك الساعات من النوم.. تشتمّ البراد الذي يُصدر صفيرًا متواصلاً ما إن تأتي الكهرباء، تضغط على زر فيه فيخرس، لا تشعل النور؛ لأنها تشعر أن العتمة تناسب روحها أكثر.. تتجرع عدة رشفات من الفودكا أو الويسكي، وأحيانًا العرق.. تبتلع المزيد من الدواء المنوم، وتنتظر رحمة النوم أو الغيبوبة، وهي التعبير الأدق من النوم.

أي عيش هذا وقعت ضحيته هي؟!.. كانت مُقبلةً على الحياة، وإيجابية، وتعشق الفجر، وتكتب صفحات والشعاع الأزرق الفضي لم يولد بعد!.. أي انهيار فظيع أصابها وجعلها لا تطيق الفجر ولا الشمس ولا الليل، ولا المشي ولا تعاقب الأيام؟! ولماذا تتجسد أمامها دومًا صورة امرأة جيوبها ممتلئة بالحصى تُغرق نفسها في النهر؟ لماذا تشعر أنها تتماهى مع فيرجينيا وولف، وأن قدرها مثلها؟.. ففي سوريا من غير الطبيعي أن تموت موتًا طبيعيًّا.

الآن لا مفر من كتابة سيرة ذاتية لوطن ومواطن، صحيح أنها بالصدفة لم تُعتقل و لم تُعذَّب في السجون، لكنها عاشت -ككل

الشعب السوري- مُروعةً بلا كرامة، ومذعورة من قبضة الأمن ودولة الأمن، وكانت كلمة «مُخابرات» كافيةً أن تتقصف فرائصها رعبًا، وكل انتظار أكثر من وقت معين على الحدود أو في المطار يعني احتمال تهمة واحتمال سجن.

أدركت في الستين يومًا التي سبقت سفرها إلى باريس أن هذا الهروب الفظيع والملحاح من الزمن ليس مجرد هروب بسيط من الضجر أو اكتئاب الأصدقاء واكتئابها، ولا هو تذمُّر من سوءِ ورداءةِ الحياة، بل هو أعمق من ذلك بكثير، إنه هروب وجودي من وجودها نفسه الذي اختزل إلى أحط أنواع العيش وأحقرها، العيش متأبطين الموت والقتل والذل بمباركة عالمية وإقليمية ومحلية.

إنها لا ترضى لنفسها هذا الوجود العدمي وانسداد الأفق، لكن إلى متى هي قادرة على الاستمرار بهذا النوع المدمر من الهروب، النوم ثم الاستيقاظ؛ لأن مفعول الحبوب المنومة يكون قد انتهى، ثم معاودة النوم، ثم اللعنة من جديد على شروق الشمس، واللعنة على حلول الظلام، ويمر العمر باللعنات.

وكم من مراتٍ قضتها طريحة الفراش لساعات وهي بحالة بين الصحو والنوم بسبب إكثارها من المنومات! إلى أن حانت اللحظة المناسبة، ولكل حدث لحظة مناسبة، لم تكن تعرف أن ثمة قرارًا يتشكل في أعماقها وفي لاوعيها تحديدًا، كانت في ذروة تأزم روحها، خيبت أملها عدة صديقات دعتهن للجلوس في مقهى رصيف، اعتذرت كلٌّ منهن، لا لسببٍ واضحٍ بل بسبب الاستسلام واليأس والكسل.. هجّت من منزلها وقصدت مقهى «الكافيه بريك»، مقابل مشفى الأسد الجامعي، وطلبت عصير جزر ومعسل

العلكة، ثمة علاقة ودية نشأت بينها وبين النادل بسبب ارتيادها الدائم للمقهى، أخذت تنفث الدخان وترشف عصير الجزر، فيما غضب أعمى يتصاعد في روحها يُشعرها كأنها تتحول إلى قنبلة موقوتة.

تعجبت؛ فقد اعتادت أن ترتاح وتهدأ حين تدخن الأركيلة وتجلس في مقهى، وفجأةً هبط سؤاله عليها، لم تحس أن النادل هو من يسأل، بل إرادة عُليا هابطة عليها من سماء قصيّة، صوت إلهي كصوت الربّ يتحدث إلى موسى وإبراهيم: سألها النادل ببساطة ودون مُقدمات وهي تعطيه بخشيشًا: ماذا تكتبين الآن؟ وحصل الزلزال، وآنت اللحظة، وأدركت بومضةِ وعيٍ كاشفة ومزلزلة أن الأوان قد آن، وأن كل وجودها أو عدمه في قبضة هذا الخيار المتحدي: أجاهزةٌ أنتِ لكتابة سيرة ذاتية لمواطنٍ سوريٍ ووطنٍ نازفٍ اسمه سوريا؟ أم ستظلين بحالة هروب من صحو قصير إلى نوم أقرب إلى الغيبوبة؟ وجدت نفسها تجيبه: أكتب روايةً.. لماذا كذبت عليه؟ سأل: رواية حول ماذا؟ اختصرت الحديث وقالت: عن حياتنا.

تركت المقهى كأن شيئًا حرِقًا لسعها، أو كأنها تذكرت موعدًا مهمًّا نسيَتْه، دخلت بيتها ودقات قلبها تضج في أذنيها كقرع الطبل، ووجدت نفسها تفكر بمعنى أن يتمتع كاتب عربي بجرأة، أن يكتب سيرة ذاتية؟ ولم يبرق بذهنها سوى محمد شكري برائعته «الخبز الحافي»، و«السيرة الذاتية» لنجيب محفوظ، التي كتبها بعد أن تجاوز التسعين من عمره على شكل مقاطع قصيرة يُمثّل كل منها حكمةً في الحياة.

ترى هل تملك المؤهلات الكافية لكتابة سيرة ذاتية؟ هل تملك الشجاعة الكافية للبوح في عالم عربي شعاره: «وإذا ارتكبتم

المعاصي فاستتروا»، و لم تكن تفهم المعاصي إلا الحرية، وهل سيرحمها محيطها حين تكتب عنه؟ لكن أي كاتب هذا يستحق شرف الكتابة إن لم يكن ولاؤه إلا للحقيقة.

لم تعرف كم مرَّ من زمن وهي جالسة في الوضعية ذاتها، سارحة في السؤال المتحدي الذي سيحدد من تكون أو لا تكون من الآن فصاعدًا؛ لأن عليها إما أن تقذف نفسها في محيط الحياة المتلاطم الأمواج، وإما أن تترك نفسها لغيبوبة الموت أو النوم. وعرفت أنها رغم قمة ضعفها ويأسها وهدرها للوقت طويلاً فإنها لن ترضى سوى أن تموت واقفةً، وأنها لن تستسلم، وأنها ستقول كلمتها وتمضي.

هنا في باريس تدرك أية آلام روحية ونفسية خارقة، كانت تعاني وحيدةً، وعلى شفير الانهيار، وبحالة خجل من أن تبوح لأقرب الناس إليها حقيقة معاناتها وساعات غيبوبتها الطويلة هاربةً من الحياة الحقيرة في وطن الموت والقهر.

هنا في باريس حيث الوحدة مثالية، وحيث تمشي في الشوارع دون أن تضطر إلى لبس حمالة نهدين، ودون أن تتزين وتدندن أغنية ابتكرتها من وحي وحدتها الباريسية: «ما حدا لحدا يا حبيبي.. ما حدا لحدا»، هنا يمكنها أن تحدق بلا خوف ولا خجل بتلك الإنسانة التي كانتها في اللاذقية -على شفير الانهيار.

«يااااه».. كم اقتربت من الموت! كم صرخت في قلب الليل: يا رب، أبعد عني هذه الكأس! وكم قاومت غواية الموت والجيوب المثقلة بالحصى!

في مقاهي باريس يُمكنها أن تستحضر الصور والأحداث التي تريد، وهنا في باريس تأملت لساعات وساعات وهي تتابع المارّة

والباصات وبهرجة الحياة.. كم كانت جبارة في عزلتها في اللاذقية وسط أموات أصروا على الاستسلام معتقدين أنه الأسلوب الوحيد للتأقلم مع الواقع، وعبارة: «ما طالع بإيدنا شيء» هي بداية ونهاية أحاديثهم.

تطلب نبيذًا أبيضَ شاردونيه، يحضره النادل مع كأس صغيرة ممتلئة بحبات زيتون حامض، تدمع عيناها وجدًا وتقديرًا واحترامًا لتلك المرأة الشجاعة التي كانتها في اللاذقية، والتي عاشت ستين يومًا على شفير هاوية.. لكنها لم تسقط، وتمكنت بأعجوبة أن تحزم حقيبة سفرها، وأن تتفق مع السائق ليقلّها إلى مطار رفيق الحريري في بيروت، وأن تقاوم طوال الليل السابق للسفر وهي تنصت لقرقعة أسنانها التي كانت تصطك لا تعرف لماذا، ربما بسبب الخوف أو بسبب الإكثار والمزج بين أنواع مختلفة من الحبوب المنومة والمهدئة، ثم محاولة الصحو بتجرُّع الكثير من القهوة.

لن تخجل من هذه الاعترافات، ولن تخجل من سيل الأكاذيب التي كانت تخترعها لأصدقائها، وخاصةً لابنتها وهي تُحدّثها كلَّ يوم على سكايب بأنها على أحسن حال، وبأنها التقت فلانًا وفلانة من الأصدقاء.

باريس الفاترة! لا أريد منك شيئًا سوى أن أغنّي في شوارعك أغنية: «ما حدا لحدا يا حبيبي.. ما حدا لحدا».. لكن ما زالت في الصفحة الأولى البيضاء التي تتحداها وتسألها: هل تملكين جرأة كتابة سيرة ذاتية؟ امرأة سورية لن تزيف ولن تمثل، ستكتب سيرةً ذاتية وسيرة وطن.

***

كافيه راي

من بين كل مقاهي باريس، وتحديدًا المنطقة التي تعيش فيها منطقة الباستيل، نشأت ألفة قوية وغريبة مع مقهى صغير جدًّا يقع على منعطف شارع، ويطلُّ مباشرةً على تمثال الباستيل الأخضر الرائع.

ثمة أرواح للأمكنة؛ لأنها من اللحظة التي جلست فيها في كافيه راي قررت أن يكون صديقَها.. هناك زاوية عند المدخل منعزلة نسبيًّا، ومأخذ كهربائي لتشغيل الكمبيوتر، كان النادل قليل الكلام، ولا يتمتع بأي فضول ليسألها ماذا تكتبين، كل يوم لأكثر من ثلاث ساعات، رغم أنها ضبطته ذات يوم يتفحصها، كانت تريد أن يسألها عن اللغة التي تكتب بها، وكانت تتخيل أنها ما إن تهم بالإجابة فسوف تبكي، كما لو أن اللغة صارت بدورها جرحًا.

كانت تفرد بضاعتها، كما يحلو لها أن تسمي الكمبيوتر، وتطلب قهوة، ثم بعد ساعة من الكتابة المتقطعة بتأمُّل المارّة وتمثال الباستيل حيث كان نظرها يستقر على قمته الذهبية، كانت تطلب قهوة بدون كافيين، وكانت تعي طوال الوقت أن شفتيها مُطبقتان لا تنفرجان عن كلام، كانت تشتاق إلى الكلام، لحسّ إنساني، فكانت ترسل رسائل عن طريق الموبايل إلى أصدقائها، خاصةً في اللاذقية،

وتتلقف كلماتهم بلهفة وشوق أرضٍ مشققةٍ من العطش لقطرات ماء.

لكن أحيانًا كانت تحس بجرح في روحها، خاصةً حين كتبت رسالة طويلة لأحد الأصدقاء، رسالة ترشح بالمودة والمحبة والشوق، وكان جوابه مجردَ رمز لايك -أي إبهام مرفوع للأعلى- أحسَّت بخيبة أمل، ترى ألا يملك أية كلمة يقولها! وجدت نفسها ترد عليه بعتب وغضب أيضًا: أهذا كل ما تملكه لترد عليّ! مجرد إشارة لايك!

فردَّ للتوّ برسالة طويلة أخبرها فيها كم أنه مُحبط وحزين! وأن أخاه تعرض لجلطة قلبية واضطروا إلى استدانة نحو المليون ليرة من أجل إجراء عملية القثطرة لأخيه.

قال: إن الحياة ما عادت مُحتملة، وأن معظم معارفه تركوا سوريا أو يخططون لتركها. تأسفت له؛ لأنها عبرت عن غضبها منه، ولما سألها عن أخبارها في باريس قالت له: إنها بالنسبة لي أشبه بسجن؛ لأنني مضطرة أن أنتظر رغمًا عني أوراق الإقامة. فقال لها: تمتعي بجمالها وحضارتها. قالت له: إنها لا تُخصّني أبدًا ولا تعنيني، وأنني أعدّ الأيام لأعود إلى وطني مهما كانت ظروفه.

تحوَّل ارتيادها اليومي لمقهى «كافيه راي» إلى أحد أهم طقوس يومها في باريس، ولولاه لكانت ماتت من الضجر والوحدة، لم تكن تفكر بأهمية ما تكتبه، وهل يصلح للنشر؟ وهل سيصير رواية؟ وهل هو مجرد خربشات توهم بها نفسها بأنها تكتب كي تتحايل على الوقت وتبدده؟

كانت مقتنعةً بأنها إما أن تقتل الزمن أو يقتلها، وكانت تحتاج أن تشجع نفسها وتطريها من حين لآخر على بعض الكتابات كي لا

تنهار من زمن يبدو أبديًّا، وحين كانت تحـــزم أغراضـــها وتـــدفع الحساب تاركةً للنادل بخشيشًا يجعله يبتسم شاكرًا كانت تحس بشيء من الرضا.

تتسكع في شوارع باريس بقلب ثقيل وروحها هناك في اللاذقية تجوبها شارعًا شارعًا وزقاقًا زقاقًا، وكانت ترى تمامًا نهايـــة يومهـــا، انتظارها عودة أخيها أو أختها من العمل مُرهقين ومُستهلكين مـــن العمل، لم يكن من فرق أبدًا أن تكون في بيت أخيهـــا أو أختـــها، فكلاهما طبيب.

وكانت مُضطرةً أن تبدل ملامح وجهها المتجهمة دومًا وتتظاهر بالابتسام وأنها قضت يومًا ممتعًا، ولم يكن يهمها: أيصـــدقانها أم لا؟ كلهم يعرفون -أن عليهم تمرير بضـــع ســـاعات قليلـــة مضـــغوطة بواجبات تدريس الأولاد والعشاء ثم النوم.. لتتتابع الأيام متشابهةً إلى حد التطابق؛ حيث تشعر بالضجر يرتشح في خلايا جسدها كلـــه، كما لو أنه دبق لزج لا يمكن إزالته إلا بتمزق جلدها.

***

انهيار

أكثر من سبعين مُجندًا شابًّا سوريًّا قُتلوا بالخطأ في ديـــر الـــزور، تأسفت أميركا أنها قصفتهم بالخطأ؛ إذ كان قصدها قتل عناصـــر مـــن جبهة النصرة.. لم يرفّ لها جفن حين سمعت الخبر. وواصلت قضم اللّوز وشرب البيرة في مقهى يطل على مخزن المونو بري، تابعـــت حركـــات الناس على السلالم المتحركة، وكيف يختار كلٌّ منهم مشترياته.

كان خبر مقتل المجندين السوريين في دير الزور كأنه من مـــادة كتيمة، لم يخترق جلدها ولا دماغها، وتخثرت مشاعرها لدرجة أنهـــا لم تستطع أن تحتقر نفسها على تبلُّد مشاعرها، طلبت كأسا ثانيةً من البيرة التي تسمى البيضاء، ولم تُبالِ أن ميزانيتها لا تحتمل كل هـــذا الترف، جرعت البيرة المثلجة وهي تبتسم بنشوة كون المشاهد حولها أخذت تغيم وتتغبش.

كان عملاقان زنجيّان يحرسان المخـــزن الضـــخم ويتفحصـــان الزبائن كي لا يسرق أحدهم أي غرض.. صبت المزيد من الـــبيرة في الكأس المُخصصة لشرب البيرة، وطغت الرغوة كثيفةً على الســـطح، شهقت؛ إذ رأتهم بنصوع شديد يسبحون في دمائهم، كانوا يعومون على السطح أكثر من سبعين جنديًّا سوريًّا من دير الزور قُتلوا بالخطأ بالقصف الأميركي.

ارتعشت يدها، واختنقت حنجرتها بحلقة حديد أعاقتها عن البلع، وعلقت بقايا اللوز في حلقها.. عليها أن تبتلع المأساة، ككل مرة، ككل مأساة، لكنها هذه المرة تحس بالعجز، لا تملك أي احتياطي من القوة لتقاوم وتتحمل.

طلبت الحساب بعد أن جرعت البيرة دفعةً واحدةً، واحتقرت تأوّه معدتها ألمًا من الكحول.. مشت بخطوات سريعة ومضطربة كأن أحدًا يلاحقها، كأنها سرقت غرضًا من مخزن مونو بري، ويلحقها الموظف الأمني الزنجي، دخلت عيادة أختها ونظراتها زائغة، ربما من الكحول، أو -على الأغلب- لأن عقلها تمكّن من استيعاب الصدمة، أسرعت إلى علبة الحبوب المهدئة وابتلعت كمشة، تعمدت أن تكون حركاتها سريعة كي تشل دماغها عن التفكير.

«سأموت، سأموت».. أفرزت أعماقها تلك العبارة فقط كقرار لن تحيد عنه، وآمنت أنها اتخذت القرار الصائب، قرارًا يحمل شيئًا من كرامة، لن تستطيع أن تتابع هذا العيش وكل أيام تسمع عن مجزرة تحصد أرواح سوريين والضمير لعالمي يشجب ويستنكر ويدين، لا أريد هذه الحياة، لا أريدها، لم ترَ نفسها جميلةً كما عكست المرآة صورتها بعد ابتلاعها كمشة الحبوب، غشت عينَيْها دموعٌ لزجة لكنها لم تسقط على خدَّيْها، وهمست لنفسها عبارة: «جيوب مثقلة بالحصى».

هل شعرت في تلك اللحظات بالتماهي مع فيرجينيا وولف؟ عكست المرآة صورتها وأحست بهالة بنفسجية حول رأسها، هالة تُشبه تاجًا مُرصعًا بحجارة كريمة، وتحوّلت الحجارة الكريمة إلى وجوه تعرفها، أو تحس أنها تعرفها، كانوا الشهداء.

وفجأةً تهلل قلبها فرحًا أقرب إلى الذعر، أجل.. كان فرحها مذعورًا، تذكرت عبد الكريم الشاب في العشرين من عمره، الذي منذ سنوات اشترك في جائزة القصة القصيرة التي تنظمها إحدى دول الخليج برعاية أميرة خليجية، كانت في لجنة التحكيم مع الناقدة المبدعة يُمنى العيد، يومها أرسلوا إليها طردًا نحو مئة قصة قصيرة مُغفَلة الاسم، وعليها أن تختار من المئة خمسَ قصص فائزة.

تذكر حيرتها وقلقها؛ لأن تسعَ قصصٍ كانت على المستوى ذاته من الإبداع، لكنها بعد تدقيقٍ وتمحيصٍ اختارت خمسَ قصص، وكان الفائز الأول عبد الكريم من دير الزور، تعاطفت مع قصته الرائعة وهو يصف سفره من دير الزور إلى دمشق؛ ليقابل الوزير -أي وزير- وصعوبات السفر، والإهانات التي تعرض لها، وتسممه من السندويشة التي اشتراها في دمشق قبل مقابلة الوزير.. ثم انتهاء القصة بأن سكرتيرة الوزير الحسناء اعتذرت للمنتظرين بأنه اضطر إلى السفر.

ما الذي دفعها لتذكُّر عبد الكريم الآن! وتذُّكر تفاصيل قصته! حتى أنها تذكرت خطّهُ! أتاها يقين بأنه أحد هؤلاء الشبان الذين قصفتهم أميركا، ليس بالخطأ -كما تدّعي- بل عمدًا.

لن يتمكن عبد الكريم من كتابة القصص القصيرة بعد الآن، لعله لو بقي على قيد الحياة لكان أحد أهم الكُتّاب.

عبد الكريم كان في العشرين من عمره حين فاز بالمسابقة، و لم يستطع أن يسيطر على فرحته الغامرة وهم يسلمونه الشيك الخاص بالجائزة، كان مبلغًا كبيرًا لا يتوقعه.

أحسّت بنمل خفيف في خدَّيْها، وعكست المرآة شحوبَها، لم تكن خائفةً على الإطلاق، بل كانت تشعر براحة مَن اتخذ قرارًا بعد

طول تردُّدد، ستلحقهم، ستكون معهم؛ فقد يحتاجون إلى عناية أخت كبرى أو أم.. شهداء دير الزور الذين هم الآن في مكانٍ ما يحتاجون إلى عناية أخت أو أم، وهي قادمة لا محالة، مكانها إلى جانبهم.

ورغم الوجه الحبيب الذي تجسَّد أمامها وظهرَ في المرآة -كما لو أن ابنتها تقف خلفها وتطوقها من كتفيها-، إلا أنها لم تستطع ثنيها عن قرارها، لم تعد تقوى على حياة القهر والظلم والصمت، ولا تريد هكذا حياةً، وقد اتخذت قرارها عن قناعة تامّة، لدرجة أحست أن أرواح شهداء دير الزور تنتظرها في نقطةٍ ما مِن السماء، في مكان اسمه البرزخ؛ حيث تتواعد الأرواح على اللقاء.

أحست بغثيان شديد وحموضة في المعدة، اعتقدت أنها ستتقيأ، لكنها أحست بوهن في ركبتيها، وبرودة كالصقيع في وجنتيها، دخلت غرفة نومها التي هي قاعة الانتظار في عيادة أختها، أضحكها منظر المقاعد الخالية، ارتمت على السرير وخيطُ لعابٍ يسيل من فمها يمتزج مع دمعة لزجة انهمرت من عينها، وتمتمت برخاوة وبطء: «أحبائي.. أحبائي».

هدَّها الوهن، فأغمضت عينيها وصارت في عالم آخر، لكنها لم تُمت بل نامت يومين وأفاقت شاعرةً أن رأسها كقِربة جوفاء، لم تلُمْ نفسها، وأسعدها أن لا أحد انتبه لمحاولتها إنهاءَ حياتها؛ لأن من عادتها أن تقضي أيامًا في العيادة دون أن تزور أهلها.

سألوها لماذا لم تردّ على الهاتف، فقالت إنها تركته صامتًا، لكن الحقيقة أنهم كانوا يعرفون مزاجها المُتقلب وتهرُّبها من اتصالهم أحيانًا -هكذا اعتقدوا-..

فكرت فيما بعد أنها كان يمكن أن تموت ببساطة لو تناولت كميةً أكثر من الحبوب المنومة.. هل تعتبر نفسها أنها تذوّقت الموت وخبرته؟ كان عليها، بل وجدت نفسها مُجبرة لتفسير ما حصل! لماذا انهارت بتلك الطريقة وأسرعت كالمسعورة راكضةً في الشارع لتبتلع الحبوب المنومة وتنتحر لاحقةً بشهداء دير الزور؟ لقد سمعت وشاهدت عبر الفضائيات مئات المجازر، وبعضها مجازر لأطفال فقط كمجزرة الحولة، لكن لم يكن رد فعلها بتلك الطريقة أبدًا.

كانت تجنّ وتكتئب وتكتب وتلتقي أصدقاء يشاركونها الألم، لكنها لم تُقدم مرةً واحدةً على محاولة الانتحار.. إنها مسألة كرامة كما فسرتها، لم يعد باستطاعتها أن تعيش بلا كرامة، وكرامة كل سوري من كرامتها، لقد أوحش العالم كله في الاستهانة بالسوريين وظلمهم والتنكيل بهم، وهي ما عاد باستطاعتها التحمّل، الحياة إما أن تكون لائقةً وتفوح بالكرامة، وإما يجب إيقافها.

لكن بدأ ذعر خفيف يتسلل من تعاريج روحها كأنه صوت يهمس بأذنها: كان يمكن أن تموتي! كان يمكن أن تموتي وتتركي ابنتك وحيدتك يتيمةَ الأم! جمّدها الذعر، الذعر من نفسها فقط، من احتمال ما يُمكن أن تُقدم عليه، بضع حبوب زائدة وكان يمكن أن تموت! ترى هل فقدت السيطرة على نفسها إلى هذه الدرجة؟

لا تزال تشعر أن رأسها خاويًا كقربة مثقوبة، لا تزال تحس بدوار وخواء في رأسها.. هل الموت هو الحل؟ عند هذا التساؤل شعرت أن رشدها يعود إليها تدريجيًّا.. اعتذرت في سرها من ابنتها، وبلّلها الخجل والخزي وهي تفكر بأنها كان يمكن أن تكون في عداد الأموات.. تخيلت ألم ابنتها وإحساسها بالعار، وكذلك آلام أسرتها.

يستحيل أن يكون الموت حلا.. عليها أن تحتمل وتحتمل إلى ما لا نهاية، حتى ينتهي عمرها، إما مذبوحةً وإما بشظية صائبة وإما بالخطأ وإما في أحسن الأحول وأكثرها رفاهيةً الموت الطبيعي.

تلت محاولة انتحارها أيامٌ من الذهول، كان عقلها أشبه بصفحة بيضاء لا تعبرها فكرة، كانت خجلة من نفسها ومن ردِّ فعلها، وكانت ترنو بخيالها لصورة ابنتها تعتذر لها، وصارت تتحدث إليها عبر سكايب والتلفون بمرح مصطنع وتدّعي أنها قامت بنشاطات أسعدتها، بينما هي لم تغادر الغرفة لأيام، وبمنظر رثّ، وأصابتها حالة غريبة من احتقار الجسد، وتلفِه السريع، والأمراض الكثيرة التي تصيبه، من اهترائه السريع مع الزمن، من الشيخوخة التي لا تستحي من التعبير أنها تقرف منها، أصابها قرف من الجسد لسبب وحيد كونه لا يُقاوم الرصاص ولا يتصدى لشظايا القنابل والصواريخ.

هل عُطب تفكيرها؟ أيُّ جسد هذا سوف يقاوم الرصاص وشظايا القنابل؟! ما الذي فعلته بها الحرب السورية؟ ما الذي فعلته بالسوريين الحرب السورية؟ وهي التي لم تخسر حبيبًا ولا منزلاً، ولم تضطر إلى النزوح النهائي.

أوشكت على الجنون والانهيار، بل في الواقع انهارت مرارًا. كيف ستفهم الشر، الشر الكوني الذي ربما الشر البشري انعكاس له؟ لماذا ينقضّ النسر على عنق أرنب مسكين وضحية ويلتهمه؟ لماذا الأسماك الكبيرة تأكل الأسماك الصغيرة؟ لماذا التسونامي والبراكين والزلازل؟ لماذا الإنسان؟ تتناسل الأسئلة وتحتشد في دماغها.. مشكلة عصيدة قاسية.

تتمشى وتتسكع في شوارع باريس والأسئلة ذاتها تلح عليها، ثم تجد جوابًا رائعًا لكل تساؤلاتها.. مجرد طفل في عربة تجرُّه أمه، يمصّ يده شاعرًا بالأمان المطلق، تتمنى لو تحتضنه وتشبعه قُبلاً. يأتيها الجواب مؤكدًا: الحب. العالم حب، والشر مرض أو طفرة يجب القضاء عليه.

وكالماء الفاتر يغمر جسدًا متشنجًا من برودة الثلج تحس الحب يغمرها ويُلينها ويُرجح كفة الأمل في روحها، وتدمدم بخجل في البداية ثم بصوت واثق مرتفع: «افرح واملا الدنيا أماني، لا انا ولا إنت هنعشق تاني».. كانت تلك الأغنية -دون أن تعرف لماذا- تعبر عن كل أملها بمستقبلٍ أفضلَ.

***

أحبائي السوريين

يتشتت الزمن، لا يرسم خطةً، تنفرط أيامه كمسبحة، كل يوم يختار عنوانه بطريقة غامضة وغريبة ودون أن يستشيرها، بل تحلو لـــه مفاجأتها، بعد الأيام السوداوية التي ابتلعت فيها كمشةً من الحبـــوب المنومة بهدف الانتحار، تعجبت: كيف انقلب مزاجها وصارت أشبه بجمرة من الحب لأحبائها السوريين الذين تعرفهم شخصيًّا والذين لا تعرفهم! كما لو أن اقترابها من الموت جعلها تدرك جوهر الحياة وهو الحب.

لعل داخل بذرة الموت توجد نواة الحب! وما المـــوت ســـوى شكل من أشكال الانتقال إلى حب أعظم.

امتلأت نفسها مشاعرَ جياشةً، وصارت تحس بتدفق مشـــاعر الحب والحنان حتى لمن ينبشون في القمامة، ولمتســـولي الشـــوارع، تسميهم في سرها: «أحبائي السوريين»، تقترب منهم، تتحدث إليهم وتعطيهم مالاً أو طعامًا حسب استطاعتها.. تبحث عن الموجـــوعين ومَن أصابتهم كوارثُ ومصائب، تتقصّى عـــن الأمهـــات الثكـــالى وتزورهن، تستمع لقصص استشهاد أبنائهن.. تتأمل نضارة الصبا في اللوحات المعلقة على الجدران يعبرها شريط أسود، كلهم شبان بعمر الصبا ماتوا، وتحولوا إلى أوراق نعي «الشهيد البطل»!.

لا تفارق غشاوة الدمع عينيها، تنصت لصوتها كما لو أنه صوت امرأة أخرى! من أين تبتكر كلمات التعزية؟ وهل ثمة عزاء لأمهات ثكالى؟ تشعر بحب جارف للشهداء الأبطال ولأهلهم وأولادهم الصغار، تعرف أنها لا تملك سوى الحب، كما لو أنه نوع من الحل، تعرف بأعماقها أنها مُفلسة ولا تملك شيئًا تُقدّمه لأحبائها السوريين المنكوبين سوى الحب، تفكر أفكارًا غريبة: ليت الحب يتحول إلى طاقة مواسية وشافية من الآلام، أحيانًا!!

تقضي يومَها كلَّه من الصباح الباكر وحتى المساء متنقلةً بين العائلات المنكوبة تحاول أن تُقدِّم لها الشيء الوحيد الذي تملكه: الحب. تمتص مأساتهم وتقدم لهم شيئًا من صبر وعزاء، تتعجب أنهم يرتاحون لكلامها، تحس أنها مُنافقة، وأحيانًا تشعر بغثيان من بلاغة كلامها الذي تتحدث به وترى الرضى والتعاطف في عيون المنكوبين، يا لسحر الكلمات! أكلامُها فعلاً مؤثر؟ أم أن هؤلاء الحزانى يحتاجون إلى التعزية بأي كلام يشد من عزيمتهم ويقيهم من الانهيار؟

حين تدخل بيتها مساءً تشعر بإعياء يهدُّها، كما لو أنها عائدة من سفر شاقّ، تترك نفسها تنهار وهي تستعرض قصص بشر التقتهم. تكتشف أنها لم تكن تبحث عن هؤلاء المنكوبين لتعزيهم بل لتعزي نفسها، لتقي روحَها من الانهيار، معتقدةً أنها بالتماهي معهم تحمي نفسها من تحمُّل الجحيم وحدَها.

تكتشف أن الإنسان لا يستطيع تحمُّل الجحيم أو الكارثة وحيدًا، وهي -منذ بداية الثورة السورية- تشعر بوحدة مرعبة وهي تشهد المجازر والمآسي، لعلها اكتشفت حيلةً تحميها من الانهيار، وهي

التماهي مع المتألمين والمنكوبين، لا تعرف إلى أي حدٍّ ساعدها ذلك؛ لأن نوب الذعر الليلي لم تفارقها، والتوق إلى الموت لا يزال من حين لآخر يدغدغ مشاعرها.

صور الشبان الشهداء توقظها من النوم مذعورةً وقلبها يدق بقوة، تتسع عيناها ذعرًا كما لو أنها لا تصدق أن هؤلاء ماتوا، تزحف في الظلام إلى الصالون وتتكوّر على الأريكة في ظلمة يضيئها قمر شاحب ووحيدٌ مثلها، لا تعرف لِمَ تعضّ بقوة على راحتها حتى تكاد تدميها؟ ولِمَ تهرش رأسها بشراسة؟.. تقوم إلى المطبخ وتغب من زجاجة الفودكا جرعةً كبيرةً، يُريحها إحساس الحرق في معدتها، كما لو أن حرق روحها ينتقل إلى حرق في معدتها..

«يااااه».. لا يوجد أصعب من حرق الروح! أحيانا تغبّ عدة جرعات كي تخفف الآلام التي تسببها لها صُور الشهداء الشبان الذين ماتوا عبثًا.. تريد أن تعود إلى النوم دون كوابيس، تريد أن يطلع الفجر، عارفةً أنه حال طلوعه ستلعنه لأنه يعني تدشين يومٍ جديدٍ من الألم السوري.

تجلس إلى طاولة الكتابة، لا تشعر أنها تكتب بل تهذي، تكتب عن طفل اسمه يحيى عمره سنة ونصف، من ريف حلب، استشهد والده، نزحت أمه من ريف حلب إلى اللاذقية وتعيش في مدخلِ بناءٍ على الهيكل، وتنتظر كلَّ يومٍ ساعاتٍ أمام أبواب الجمعيات الخيرية التي توزع مساعدات على النازحين، يحيى لا تكفيه كمية الحليب التي يقدمونها له كمعونة، تعوّض له أمه وجبات الحليب بشربِ الشاي.. حين حملت يحيى أحست بأنها تحمل سرابًا؛ كان خفيفًا وضئيلاً، وصرخت بأمه موبخةً: لا يجوز أن يشرب الشاي وهو طفل صغير.

بكت الأرملة الأم وقالت: لكن الحليب لا يكفي. وهو يبكي من الجوع، تمنت لو تنفجر كقنبلة. وعدتها أن تتحدث إلى مسؤول في جمعية خيرية أخرى تؤمّن حليبًا للأطفال.

كيف يتحمل ضمير العالم أن يجوع أطفال سوريا، وأن تضطر أمهاتهن إلى إعطائهن الشاي بدل الحليب لأن المعونة من الحليب لا تكفي! كيف ستتأقلم مع هذه القصص المأساوية وتبقى بكامل قدراتها العقلية! كيف يتحمل الناس! كيف لا يزالون يملكون القدرة على العمل، والمشي والنوم والأكل؟! هل استسلموا وتخدرت مشاعرهم؟! هل أصابهم الذهول فاستسلموا لوحشية القدر يجرجرون أيامهم؟! هل تصيبهم نوب من الانهيار والذعر مثلها؟!

لكن الكل يجتهد أن يُخفي مشاعره عن الآخر! الكل يكذب على الكل ويتظاهر بالتماسك، بينما الجميع منهار في صومعة عزلته.. أكثر ما يهمنا المظاهر؛ هذا ما نؤمن به، لا أحد يعذر الضعيف، والكل يحترم القوي.

يا لخداع المظهر! كم مرةٍ كانت متلاشيةً كخرقة من الألم، رثةَ الهيئة، ملبدة الشعر من الإهمال، ومنامتها مجعدة وقذرة، ورموشها يابسة من البكاء حين يأتيها اتصال مفاجئ من صديقة أو صديق يدعوها للقاء، تنتفض كما لو أن طاقةَ نجاةٍ انفتحت لها، تسرع للاستحمام، تتأنق وتتقن لمسات المكياج، وتبالغ في رش العطر، تتأمل صورتها الجديدة كم تبدو معافاة وقوية! وتتخيل نفسها كيف كانت منذ دقائق.. كم يتقن الإنسان التمثيل؟!

تحس براحة حقيقية مع أصدقائها الذين يتفقون أو يختلفون حول تحليلٍ ما يجري في الواقع، لكن المهم الحديث، ذلك الإحساس

بالألفة والمشاركة، ذلك الصوت الآخر -غير صوت الأعماق الموحشة والمذعورة-، تشارك في الحديث بثقة، وتستوقف أصدقاءها بتحليلاتها.

تشعر وهي تتكلم أنها تتأمل تلك المرأة التي تتكلم، وفي داخلها ثمة إنسانه رثة المظهر قذرة ومذعورة وضحية كوابيس وتتجرع جرعاتٍ من الكحول في الليل حين توقظها الكوابيس، تصيبها أحيانًا رغبة أن تبوح لأصدقائها حقيقة تلك الساعات والأيام من الانهيار التي تعيشها، تشعر أن الكلمات تصل حتى حافة شفتيها فتلجم انفلاتها بصعوبة.. فالمهم المظهر، عليها أن تبدو متماسكةً وغير منهارة، وألا يحزر أي من المقرّبين منها كيف يغويها الموت أن تنهي حياتها وترتاح من عيش القهر والموت والعار.

يسكنها الطفل يحيى لأيام، تشعر بالقرف من نفسها حين تأكل طعامًا صحيًّا مترفًا، بينما يحيى ابن السنة والنصف لا يتناول حاجته من الحليب، بل يشرب الشاي، لعله ضحية الأرق بسبب الشاي المُنبه.

بعد أيام يسكنها مراد ابن الرابعة عشرة، الذي اختفى والده، وقد يكون ميتًا، أو التحق بالجيش الحر أو أية جماعة جهادية في سوريا، اضطر مراد الذي كان يعيش مع أسرته في شارع بابا عمر في حمص أن يترك المدرسة ليعمل في ورشة نجار؛ كي يؤمّن الخبز لأمه وإخوته الأربعة، لكن مراد يشعر أنه رجل الأسرة، ولا يشكو من التعب وهو يعمل عشر ساعات يوميًّا، ويدندن بأغانٍ شعبية وهو يعمل ويؤمن بالله والقدر، ويؤمن أن ما بعد الصبر إلا الفرج.

يعيش مراد مع أسرته في غرفة بائسة يرشح سقفها دومًا بالماء، أرادت أمه أن تعمل خادمةً في البيوت، لكنه رفض؛ لأن المرأة -

برأيه- يجب أن تعيش مُعززةً مُكرمةً، ثم إنه لا يرضى أن يُحرم إخوته الصغار من حب أمهم وعنايتها.. لكنهم جياع بدورهم، فالمال الذي يجنيه مراد بالكاد يكفي ثمن الخبز اليومي، إضافةً إلى بعض المساعدات الغذائية التي يحصل عليها النازحون.

لا يعرف مراد وإخوته طعم اللحم والخضار والفاكهة، طعامهم خبز وشاي والقليل من الحلاوة والزيتون!

لقد زارت مراد مرارًا في غرفته البائسة، وتعرفت على أسرته، وعلى أمه التي لا تفارق الدموعُ عينَيْها وهي تتحسر على بيتهم في حمص، وعلى اضطرار مراد الذي كان مجتهدًا في المدرسة إلى إعالتهم.. زارتهم مرارًا حاملةً بعضَ علب من الحلوى، وذات يوم كيلوين من اللحم.. ثم غرقت في اكتئابها المعتاد وهي تحس بعبثية الحياة وأنها لن تستطيع أن تعطي أسرة مراد أكثر.

من أنا؟ أصبح هذا السؤال يُقلقها ويُخيفها، أتملكُ كيانًا خاصًّا حقًّا؟ أم أنها أصبحت مسكونةً بأحبائها السوريين؟

كل عدة أيام يتبدل البطل المُعذب الذي يحتل كيانها لأيام، ربما أدقُّ وصفٍ لها أنها ليست سوى مُستودعٍ لقصص السوريين المأساوية، وعليها أن تكتب عنهم، وأن تكون شاهدة عصر، حتى لو لم يبالِ أحد بما تكتب؛ فإنها ستكتب عنهم شاعرةً أنها تضع الورق في زجاجة وترميها في البحر، لعل أحدًا ما يقرأ عن يحيى أو مراد أو غيرهما.

«العيش في المأساة».. هذا ما عليها أن تواجهه كلَّ يوم: كيف يمكن للإنسان أن يتأقلم مع العيش في المأساة؟ وحين تزور أصدقاءها، وتسمع مأساة ومعاناة كل منهم، كيف عليها أن ترتكس وأن تقي

نفسها من الانهيار؟ كيف ستنسى منظر صديقتها التي ذوبتها المأساة السورية فأصبحت مجردَ هيكل عظمي، جالسةً على المقعد بحالة ذهول ويداها كأنهما مشلولتان متراخيتان على مسندَي المقعد والقهر يُصلب صوتها ويجعله متحشرجًا، وهي تنظر إليها بنظرة جمّدها الغضب والحزن وتقول: إلى متى؟! إلى متى ستنتحمل هذا العمر الذليل؟! ولماذا قدرنا بهذا الشكل؟ لماذا قدرنا أن نعيش بعيدين عن أولادنا بعد أن رميناهم في البحر، والله أعلم كيف يعيشون في بلاد اللجوء!

أي قهر فظيع تحسه تلك الأم، تلك الإنسانة مهدورة الكرامة التي تقتات القهر؟ ألا تمثل تلك الأم معظم أمهات سوريا؟ بل لعلها من أكثرهن حظًّا لأنها لم تنل شرف «أم الشهيد» بعد.

«تسكعي، هيا تسكعي في تعرجات المأساة السورية، تسكعي في تعرجات روحك المتطابقة مع تعرجات المأساة السورية».. هذا ما كانت تقوله لنفسها وهي تهيم في شوارع اللاذقية بلا هدف، عابرةً جموع الأطفال المتسولين والنابشين في القمامة، متأملةً أجيالاً ساهمةً وواجمةً مرميةً في مقاهي الرصيف تدخن الأركيلة.

كانت تحس أن حياتها مجرد سراب كدخان الأركيلة، تريد أن تكون مهدودةَ القوى كي يمتص تعب جسدها قليلاً تعب روحها، تريد أن تكون مهدودة القوى كي تتمكن من النوم دون أن تفتح الدرج الذي يضم كل أنواع الأدوية المنومة والمهدئة.

كانت تريد أن تصرخ في وجه الله، أين أنت؟ أين أنت؟ ألم ترَ أجساد مجزرة أطفال الحولة أمواتًا ومتراصّين وبقايا أحلامهم الطفولية عالقة بأهدابهم! أين أنت يا أبانا الذي في السماوات؟ هل

ستبقى فيها تتفرج على عبادك المعذبين؟ ألم يقولوا: لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بإذنه؟! لِمَ لا تتدخل إذًا يا رب العالمين؟ وأنا، أنا، انظر إليّ، لطالما زرتك في الكنيسة الرائعة البسيطة والصغيرة والواقعة في زقاق، كنيسة السيدة العذراء، أظنك تتذكرني، كنت طفلة صغيرة لا يتجاوز عمري السنوات العشر، وكنت أركع أمام الأيقونات وأدوخ سعادة برائحة البخور التي كنت أعتقد أنها رائحتك يا إلهي، وكنت أشبك أصابع يدي وأصلي بكل خشوع وعيناي مُغمضتان الصلاة الربانية: أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجّنا من الشرير.. آمين.

أهي مشيئتك يا إلهي أن يحصل ما حصل؟ وهؤلاء الأغبياء الذين يقولون لنا إن الله أعطى الحرية للإنسان، وإنه من الصعب على بني الإنسان أن يفهم المقاصد الإلهية. لماذا يا إلهي صعب علينا فهم مقاصدك؟ ولماذا خلقتنا؟ ما غايتك من خلق أكثر مخلوق إشكالي ومُعذب: الإنسان.

كانت تتسكّع في شوارع اللاذقية وهي تخاطب الخالق بتلك الأسئلة المتمردة، شاعرةً أنه في عالم آخر، وأنه لن ينصت إليها.. كانت لا تستطيع أن تفهم هؤلاء الذين يؤمنون إيمانًا مُطلقًا برب العالمين، مُسلّمين كل مصائرهم وما يحدث معهم لمشيئته.. الشك كان يقتلها، والإرادة الإلهية المُستعصية على عقلها! لطالما صرخت بوجه أصدقائها: لماذا خلقنا الله ونحن عاجزون عن فهم مقاصده الإلهية؟ لماذا يعذّبنا؟ والبعض كان يعتبر تساؤلاتها كفرًا.

تعود إلى بيتها بعد ساعات من التسكُّع المضني، رائحة جسدها تفوح بؤسًا، تتعمد ألا تستحمّ، ترتمي أمام شاشة التلفاز تتلقّى الجرعة اليومية من الأكاذيب والقهر، ثم تستنجد بالرحمة الوحيدة المتبقية لديها وهي النوم، مُدركةً أنها بعد ساعتين أو ثلاث ستقفز مُروعةً من الكوابيس، وستكرّ المسبحة حبةً حبةً، يومًا تلو يوم، حرقًا تلو حرق، موتًا تلو موت، ذبحًا تلو ذبح، نزوحًا تلو نزوح، غرقًا تلو غرق، شهداءَ تلو شهداء.. والكل يدين ويشجب ويستنكر.

«أهذه هي الحياة!».. يتحول كيانها كله إلى هذا السؤال: أهذه هي الحياة ابنة القحبة؟ تهبط الرحمة أخيرًا، وتغيب عن الوعي كما لو أنها نائمة.

***

الكاهن

لِمَ لا تُجرّب الوهم؟ لِمَ لا تقصد كاهنًا في كنيسة وتطلب إليه أن تمارس سر الاعتراف.. لم تكن يومًا مقتنعةً بأيٍّ من هذه المسلمات والمعتقدات، لكن آلام روحها المزمنة ويأسها دفعاها إلى البحث عن أية وسيلة.. ألم يُدْهشها المؤمنون دومًا بذلك اليقين الذي يملكونه، وتلك الراحة النفسية التي يشعرونها! والأهم ذلك التفاؤل الذي لا أساس له على أرض الواقع! لكنهم مقتنعون أن القادم أحسن وأفضل، وأن الله لن يتخلّى عن عباده.

لم تصدق يومًا -هي التي لم تقتنع أبدًا بالفكر الديني- أنها ستلجأ إلى كاهن! ربما دفعها الفضول وحده أو الضجر، أو - لِمَ لا؟ - لعلها أرادت إحراج الكاهن حين ستقول له: إنها تفكر بالانتحار، وتعتبره قرارًا حرًّا، وأنها لا تستطيع أن تؤمن بإله لا تفهم مقاصده، ولا تفهم «لِمَ يسمح بكل هذا الشر في العالم؟».

كان هناك كاهنٌ في بداية عقده السادس محبوب من المؤمنين، ويمتلك موهبة سحر الكلام؛ إذ كان الجميع ينصت لمواعظه بخشوع، وبالتأكيد كان يسمع عنها ويقرأ بعضًا من مقالاتها وكتبها، وكان صديقها على الفيس بوك ويطري عباراتِها من حين لآخر.

حين حددت معه موعدًا أحست بفرحة، بأن تقصده، هي التي لم تذهب إلى كنيسة أبدًا إلا بالمناسبات الاضطرارية، كـالأعراس والجنازات، فكرت وهي تذهب إليه تفكيرًا مرحًا وساخرًا: ماذا لو سألتُه: أبانا، كيف تعيش حياتك عازبًا؟ ألا تتـوق إلى احتضـان امرأة؟ ألم يخلق لك الله الشهوة الجنسية؟ فلِـمَ لا تمـارس الجـنس وتتزوج؟

وكانت تعرف الأجوبة سلفًا: أن هؤلاء الكهنة الذين اختـاروا البتولية، اختاروها عن قناعة، كمن يضحي برغبته الجنسية من أجـل الخالق! و لم تقتنع يومًا بهذا المنطق، فلم يطلب منَّا الخالق أن نضـحي برغباتنا الجنسية وهو عالمٌ أي مخلوق خلق!

دخلت الكنيسة، فهاجت ذاكرة طفولتها التي حرضتها رائحـة البخور، وتذكرت الطفلة التي كانتها وهي تشبك أصابعها لتصـلي الصلاة الربانية. كان الكاهن بانتظارها، رحَّب بها بحـرارة صـادقة واحترام لبق وصلها وأسعدها، لكنها أحسَّت أنه قام بحركة كمـن يتمنى لو تُقبل يدَه، فتجاهلت رغبته.

جلسَا متقابلَيْن أمام الهيكل، متنكرَيْن لطقوس الاعتراف: بـأن تركع أرضًا، ويضع منديلاً على رأسها، ويطلب إليهـا أن تعتـرف بذنوبها.

كادت ضحكةٌ تنفلت منها؛ إذ تذكرت أنها كانـت -وهـي طفلة- تؤلف ذنوبها، فهي لم تكن تعرف ما هي خطاياها وذنوبها؟

سألها عن كتاباتها، وأبدى إعجابه بمعظم ما تكتب، واعتبرهـا قدوةً للجيل الجديد.. أحست بمرارة: ماذا لو عرف أن تلك القـدوة تفكر جديًّا بالانتحار، وأنها لم تَعُدْ تطيق الحياة؟

وأحست بعبثية الفكرة، وأنه من غير المجدي أن تقصد الكـــاهن الذي يعتبرها قدوةً للجيل الجديد بثقافتها وبذهنها المتنور وتقول له: يُغويني الانتحار. لكنها شعرت أن لا مجال للتراجع، وبادرته بالكلام بأن اليأس والألم المزمن الذي ما عاد بمقدورها تحمُّله هو ما دفعها إلى طلب مساعدته.

عصف بروحها غثيـــان حـــين تفوهَّـــت بعبـــارة: «أطلـــب مساعدتك»؛ لأنها بأعماقها كانت تؤمن أنها تفوقه في كل شيء: في العلم، والثقافة، والمعرفة، ما عدا الإيمان.

شكرها على ثقتها به، وأظهر لها تقديره العميق لاختيارها إيَّـــاه كمُعين في الشدائد. ابتسمت؛ إذ تذكرت تلك العبارة أيضًا المُحفّـــة بذاكرتها وهي طفلة تقصد الكنيسة صباح كل يومي الجمعة والأحد.

تنهَّدتْ وقررت إطلاق الرصاصة كما أحست كيف ســـيكون صدى عبارتها أمامه، قالت له: قد أُخيِّب أملك؛ إذ إنني منذ مـــدة لا أستطيع تحديدها بدقة، صرت أفكر بالانتحار.

وتابعت كمن تدعم فكرتها أو تخفف الذنب عـــن روحهـــا: الانتحار عند اليابانيين لا يُعتبر خطيئةً بل قرارًا حُرًّا بإنهـــاء الحيـــاة. وأعرف أنه في الدين المسيحي والإسلامي قتل للنفس، أي: جريمة.

أعجبها أنه لم يتفاجأ بكلامها، بل يمكن أنه تفاجأ لكن مهنتـــه علَّمَته إخفاء مشاعر تأثُّره.

سألها: هل ثمة سبب مباشر يدفعك إلى التفكير بالانتحار؟ قالت بثقة: الموت اليومي؛ الحياة التي لم تعُد حياةً، بل تنويعات للموت. لم أعد قادرةً على تحمُّل أوجاع روحي، وأحس بعبثية الحياة كما لو أنها تكرار أبدي للألم.

قال لها: إنه في الحقيقة ليس مُقتنعًا بجدية رغبتها بالانتحار؛ لأنها تملك ميزات رائعة تُحسد عليها، ولأنها تؤثر في جمهور كبير من الجيل الجديد وتُحفزّهم على الأمل والشجاعة، وأن مواقع إلكترونية عديدة تنشر مقالاتها، وأن شهرتها كبيرة وثقافتها عالية.

وأضاف: أن أقوى الجبابرة يجربهم الشيطان. شعرت برغبة في الضحك حين سمعت كلمة «شيطان»، وتذكرت ذعرها الطفولي حين كانت تسمع قصة آدم وحواء والأفعى التي ترمز للشيطان.. لكنها قالت له بعد أن شكرته على ثقتها به: أنا لستُ واهمةً، صدقني أنا أقاوم بشراسة وإصرار فكرة الانتحار.

هبط قلبها حين سألها: وهل حاولتِ الانتحار؟ فقالت: أجل، مرة واحدة، ولا أظنني كنت جادةً. سأل: وماذا كانت النتيجة؟ هل تعرضتِ لغسل المعدة؟ ردت: لا، بل نمت نومًا عميقًا ليومين. سأل قلقًا: لكن كان يمكن أن تموتي؟ ردت بخجل: لا أعرف.

عاد يشرح لها فكرته بأن أعظم الآباء الروحيين وأعظم القديسين تعرضوا لزعزعة كبيرة لإيمانهم، وعذّبهم الشك، حتى أن القديس سلوان بدأ حياته بجريمة قتل وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، وهو الآن من أعظم القديسين. أكد لها أن كل الكتب السماوية ذكرت الشيطان، وأن من واجبها أن تشحذ قواها وكل طاقاتها لتقاوم الشيطان الذي يوسوس في أذنها بفكرة الانتحار.

رغبت بالضحك ساخرةً من كلامه ومن استعماله لكلمة «شيطان» التي تدل -برأيها- على سذاجته، أحست أن لا شيء تغيَّر في التعليم الديني المسيحي مذ كانت طفلةً وحتى بعد مرور عقود من الزمن، لا يزال معظم رجال الدين يحكون عن الشيطان

بالطريقة ذاتها، كما لو أنه كائن حقيقي يتربص بالإنسان ليُوقِعه في الخطيئة.

لكن شعورًا بالراحة غمرَ روحها لمجرد تواصلها الإنساني معه، معتقدةً أن مجرد وجود شخص يصغي إليك بكل جوارحه فهو نعمة.

دعاها بعد ممارسة سر الاعتراف إلى مكتبه لشرب القهوة، شكرته على لطفه وقالت له إنها مُمتنة له؛ لأنه أهداها وقته، وقالت إنها تحفظ مثلاً صينيًّا يقول: «إذا أحببت شخصًا فاهدِه وقتك».

لفحتها رائحة البخور في مكتبه، سحبتها الرائحة إلى عالم الطفولة النقيّ حين كانت واثقة بالحياة وتقرأ مقطعًا من الإنجيل كلّ يوم قبل أن تنام، وكانت تحب يسوع المسيح وتضع تحت مخدها أكداسًا من صوره وهو طفل في المزود، وهو على الصليب، وهو مع تلامذته الصيادين، وكانت تُفتتن بمعجزاته من إكثار السمك، وإطعام حشود غفيرة، إلى إقامة أليعازر من الموت، ومعجزة إكثار الخمر.

كانت طفلةً سعيدةً بتلك القصص، وتفتتن بها بنفس الطريقة التي تُفتتن بها بقصص جرجي زيدان، لم تكن تُميز بين القصة الدينية والتاريخية، كانت تعشق فن القصّ، وحين كانت في التاسعة من عمرها وكتبت قصتها الأولى كانت مزيجًا من أعاجيب يسوع المسيح ورواية العباسة أخت الرشيد لجرجي زيدان.

رشفت القهوة بتلذُّذ كما لو أن طعمها مُختلف، كما لو أنها قهوة مُقدسة وممتزجة برائحة البخور.

عاد إلى امتداح مقالاتِها الوجدانية -كما وصفها-، وأكد لها أن ثمة الكثير من المتابعين لكتاباتها، وأنه يشيرِ دومًا إلى بعض الأفكار والعبارات التي تكتبها على صفحتها على الفيس بوك.

تعمدتْ أن تلتقي نظرتُها نظرتَه لتسبر غور روحه، سألته: ألا تتعجب يا أبانا أن تلك المرأة التي تمتدح كتابتها وشجاعتها يُغويها الانتحار؟! كساها شعور الخزي والخجل وهي تسأله، وقبل أن يجيب، خمنت أن إجابته سوف تكون بأن ما تحسه هو من وسوسة الشيطان الرجيم، لكنه خيَّب توقعاتها وقال لها: إن الظروف التي تمر بها البلد فائقة الصعوبة، وإن أقوى الأقوياء يكتئبون ويأسون بسبب هذه الظروف. وطلب إليها أن ترى الجانب الممتلئ من الكأس، أي: أن تكون متفائلة.

لكن عبارته لم تتفاعل في نفسها على الإطلاق، سوى تخيُّلها لكأس ممتلئةٍ ماءً حتى المنتصف.

استأذنته بالانصراف، فشكرها لثقتها به، وأنها قصدته، وقال: إنه يتشرف أن يكونا أصدقاء. لكنَّ شعورًا مُريبًا انتابها حين ضغط على يدِها وهو يُصافحها مُودعًا، لامت نفسها على شعورها المُريب، لكنها سرعان ما تذكرت إيمانها بنظرية أن الأحاسيس كلها صادقة، وبأن شعورها صادق، و لم تفهم لِمَ ضغط على يدها بتلك الطريقة، ولا غايته الخفية من سلوكه!

حاولت أن تُقلِّل من أهمية هذه الحادثة، لكنها حين تلقت منه رسالة عبر الفيس بوك يطمئن عليها ويدعوها لزيارته في الوقت الذي تريد، أحست بامتعاض، أحست بما لا يقبل الشك أنه يتحرش بها بطريقة واضحة، ولامت نفسها على غبائها، وكيف

فكرت أنها ممكن أن تجد الراحة والسلام النفسي لدى كاهن! لكنها لم تعُد تطيق أن تلوم نفسها، كيف تلوم غريقةً تتلاطمها أمواج اليأس والإحباط؟

كانت بحاجةٍ إلى أي مُخدر لآلام روحها التي بدأت تقلقها وتروعها وهي تغويها بالانتحار -رغم أنها تعرف تمامًا أنها لن تُقدم على الانتحار-، أحست بغاية خفيّة من اتصاله، وشّمت رائحة غواية مبطنة في رسالته التي تعني أنه ينتظر زيارتها، بل في الحقيقة يتوسل تلك الزيارة -كما أحست من خلال كلماته. ردت على رسالته بلباقة بأنها شاكرة له، وبأن سر الاعتراف الذي مارسته عن طريقه قد أراحها وخفف من مشاعرها السلبية.

كرر دعوته لها لزيارته، فوعدته أنها ستلبي الدعوة.. وحدَه الفضول دفعها إلى قبول دعوته، أحست أنه يريد شيئًا، امرأة في عقدها الخامس لا يُمكن لحدسها أن يُخطئ، ماذا يريد منها؟ الأمر أبعد بكثير من مجرد رغبته في الاطمئنان عليها، يزداد فضولها وتشعر برغبة أن تعريه، أن تكتشف نواياه الحقيقية.

اتصلتْ به، فغمرها بهجة سماعه صوتَها، واتفقا على اللقاء تمام السادسة والنصف عصرًا بعد أن ينتهي القداس الإلهي كل يوم سبت، شعرت أنها مُقدمة على فعل سوف تندم عليه وتحتقر نفسها أيضًا، ترى كيف يتشكل الحدس؟ ولماذا تشعر بتلك المشاعر؟ للحظة خطر ببالها أن تتملص من الموعد، لكنَّ ثمة شعورًا أقوى منها يدفعها إلى لقائه؛ لأنها واثقة أنه يُخفي شيئًا، بتعبير أدق: يريد شيئًا.

ستلبي دعوته على الأقل كي ترتاح من تأمُّل غواية فكرة الانتحار، لم تعرف لماذا عدلتْ عن رشّ العطر، عليها أن تتعامل مع

رجل الدين -«أبينا» كما يسمونه- باحترام بالغ، وأن تبعد عنه أية غواية التي قد تكون عطرًا.

وحين ترجلت من سيارتها ضحكت وقد تفتّقت بذهنها عبارة: «الحياة رجل وامرأة». ماذا تعني هذه العبارة تحديدًا، هل تشعر بأعماقها بأنها امرأة تُواعد رجلاً، أم أن كليهما -أبانا وإياها- يمارسان لعبة خداع النفس، بأنه رجل دين، وهي عبدة الله المسيحية التي تمارس سر الاعتراف، فيغفر الله خطاياها عن طريق الكاهن الذي يستمد سلطته من الله.

لم يضغط على يدها كما توقعت، لكنها رأت زجاجة نبيذ أنيقة وكأسين بجانبها، سألها إن كانت ترغب بشرب كأس نبيذ، شارحًا لها أنه نبيذ معتق ومن أجود الأنواع، وصناعة أسرة مشهورة بصناعة النبيذ. ابتسمت علامة الموافقة، وغمرها شعور بالعبث وأن كل الأمور متساوية، بدا مرِحًا وسعيدًا، وشربَا نخب وطن يتمنيان أن يحل فيه السلام.

باغتته بسؤال: كيف تؤمن أبانا بالله؟ ألا تساورك الشكوك؟ اعذرني على سؤالي، لكنني طالما تساءلت: لِمَ لا يتدخل الله في التاريخ ويوقف هذه المجازر؟ رد بثقة بأن منطق العقل المُجرد عاجز عن فهم الإيمان، وأن الإنسان يجب أن يُسلِّم بمُسلَّمات سلفًا ولا يناقش فيها حتى يتمكن من الإيمان.

توقعت تمامًا جوابه، فردت شاعرةً أنها تحشره في زاوية: لكن أين أذهب بعقلي والأسئلة التي يطرحها؟ ثم إن الله خلقنا كما نحن، أي: كائنات تطرح الأسئلة، وتفكر، وتشك، وتحتاج إلى أجوبة مُقنعة وليس إلى مُسلمات! اعذرني أبانا؛ لا أستطيع أبدًا أن أقبل بالمسلمات.

أزعجها جوابه، كأنه يحرجها ويُفحمها.. لكنكِ لجـــأت إليّ، أقصد إلى الكاهن لتمارسي سر الاعتراف، ولتشعري براحة نفســـية؛ لأنك بأعماقك تشعرين بالله. ردت: لا، أبانا، أظن أنني لجأت إليك -ولا تؤاخذني على صراحتي- بسبب رواسب من الطفولـــة لـــيس أكثر، لأنني في حقيقة الأمر لست مؤمنةً ولا أفكر بالأديان أبدًا، ولا أمارس أي طقس ديني، ولا أُصلّي في الكنيسة؛ لذا أنني زرتك، ومـــا تسميه أنت سر الاعتراف كان نوعًا من سلوك -كما لو أنه نكوص إلى الماضي- تجرُّع كأس النبيذ.

وصبَّ كأسًا ثانيةً، وسألها إن كانت ترغب بالمزيد فشـــكرته قائلةً: لم أُنهِ كأسي بعدُ.

تبدلت نظرته، لم يعُد أبانا البتول الذي لا ينظر إلى امرأة نظـــرة شهوة، لم يعد يُطبّق الآية المذكورة في الإنجيل: «من نظر إلى امـــرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه»، الآن أبونا صار رجلاً يشتهي امرأةً.. قابلت نظرة الشهوة في عينيه بفتور وسخرية كما لو أنها تقول لـــه: ماذا حل بك يا أبانا؟ يا من نذرت نفسك للعفة ممتنعًا عن لمس امرأة.

قام وجلس بجانبها، ومسح بحنان على شعرها، أحست بارتباكه واصطخاب مشاعره، لكنها تركته يفعل من باب الفضول، يُغويها أن ترى رجُل دين نذر العفة يسقط في الغواية، تُريد أن تعـــرف العـــالم السري لأبينا، كان يلبس لباس الكهنوت الأسود الطويل حتى يلامس الأرض، مرَّر أصابعه على وجهها، وقال لها: أنت جميلة.

تعمدتْ أن تكون ملامحها جامدةً، وألا تُبدي أي رد فعل كـــي تعرف إلى أين يريد أن يصل! وحين قرَّب وجهه من وجهها ليلـــثم شفتيها تركته يفعل رغم قرفها، ثم أبعدته عنها دون أن تتفوّه بكلمة،

مسحت بقرف بقايا لعابه عن فمها وتنهدت قبل أن تغرس عينيها في عينيه وتسأله ساخرةً: ماذا فعلت يا أبانا! وتعمدت أن تُحمل كلمة «أبانا» كل احتقارها وسخريتها.. لكنه أخذ يطقطق أصابع يديه بعصبية وقال لها: كلانا، أجل كلانا -أنا وأنت- يحتاج إلى الحب. سألته: لكن من وجهة نظر الدين المسيحي ما حصل بيننا ليس حُبًّا بل زنى؛ إذ لا رابط شرعي بيننا! أجاب: لا أبدًا، ما حصل كان لحظة حب، والله يبارك الحب.

بلغت رغبتها بالسخرية أوجها حين قالت له: وهل تعالج كل النساء اللاتي يقصدنك في سر الاعتراف بالحب؟ نظر إليها متألمًا وقال: لا أستحق سخريتك، اعتقدت أنك لمست صدقي، أنت تعجبينني كثيرًا، ومنذ سنوات، ونحن في هذه الظروف الصعبة نحتاج أن ندعم بعضنا، أن نكون قريبين من بعضنا.

وقاطعته: لكن يا أبانا حسب الشريعة المسيحية أنت وأنا زناة، ثم إنني لا رغبةَ لديّ بأي رجل. سألها: لماذا سمحتِ لي أن أقترب منك إذًا وأن أقبّلك؟! قالت بلا حرج: من باب الفضول فقط أبانا، من أجل أن أشهد ما أُومِن به أن لا عفة حقيقية، فأنا أحتقر منطق العفة؛ فالله خلق الرغبة الجنسية لدى الإنسان ليعيشها ويمارسها لا أن يمتنع عنها.. أنت تجد مبررات خاطئة لرغباتك أبانا، فتَهِم نفسك أن الله محبة ويبارك الحب، بينما حقيقة الأمر -إن كان هناك حقًّا دينونة ومحاسبة- أنك زانٍ وأنا أيضًا.. لكنني لا أبالي، أما أنت يا أبانا فيجب أن تبالي وتكفّر عن ذنوبك كما في قصة «طيور الشوك» هل قرأتها؟ لقد أذهلتني هذه الرواية والفيلم المقتبس عنها أيضًا.. ذكرتني بالرواية أبانا.. والآن، اسمح لي بالانصراف.

لحقها، وأحاط كتفيها بذراعيه، وقال لها وكأن صوته قادم من عالم آخر: أشكركِ، أشكركِ، لقد أعطيتِني ما لا يُعطى. بدت لها هذه العبارة قمةً في المهزلة، فكرَّرَتها ساخرةً بينها وبين نفسها: أعطيتكَ ما لا يُعطى!! ماذا تعني، كما لو أنني العذراء أهديتك عذريتي! لكنها لم تعلق بكلمة سوى افتعال ضحكة.

تركته يصارع رغباته، وعادت إلى بيتها مذهولةً مما أُقدم عليه أبونا، وعبارته التافهة: «أعطيتِني ما لا يُعطى!!» كما لو أنها سفحت شرفها معه.

ارتمت على الأريكة وتساءلت: أي الأمرين أسهل: مواجهة غواية الانتحار، أم التفكير فيما قاله أبونا؟ و لم تتوصل إلى جواب.

***

لا شيء

يوم جديد في باريس، تَهِم نفسها أنها ستعطيه معنى، تعرف أنها منافقة؛ إذ سيمر بلا معنى كالأيام السابقة، تلبس اللباس ذاته الـــذي تلبسه منذ أسبوع، تُرى هل تُحب شعورها بتحقير نفسها؟ لا تعرف لم تشعر أنها تهين باريس حين تهمل إهمالاً شديدًا ومقصودًا أناقتَها.

تتأبط اللاب توب الثقيل وتقصد المقهى ذاته، وتجلس في زاويتها التي اختارتها مقابل النافذة العريضة والمطلّة على مقهًى مقابل، تحـــب أن تشعر أن الحياة مجرد مقهى، أن تختزل الحياة بمقهى، نسمة بـــاردة تلفحها تدخل من النافذة، لكنها أحبت تلك البرودة المنعشة عســـاها تُعطي معنًى ليومها. لماذا يبحث الإنسان دومًا عن معنى؟ أليس هـــذا البحث هو ما يعذبه؟ تصدح موسيقى جاز في المقهى، في اللاذقيـــة، كانت تسمع فيروز في الصباح، هل تُعطي يومها عنوان «موســـيقى الجاز»؟

لا رغبة لديها في الكتابة، لكن لا بديل، مـــاذا ســـتفعل إن لم تكتب حتى لو كان رأسها فارغًا تمامًا من الأفكار.

عند زاوية الرصيف ثمة شاب ضئيل القامـــة، يحمـــل بندقيـــة ضخمة يُعلقها بكتفه، ويده اليسرى تسند مؤخرة البندقية، ويـــده اليمنى تمسك فوهتها حيث تنطلق الرصاصة وتقتل. تتأمله بحنـــان،

تحس بطريقة ما كأنها أمه وتتساءل: ترى ما شعور أمه وهي تـرى ابنها يحمل بندقية طوال النهار؟ يضع على رأسه قبعة كحلية أنيقـة لها شكل سمكة.

موسيقى الجاز حزينة، وصوت المطرب مُثقل بالشجن، تنشـأ علاقة بين الشاب والموسيقى كما لو أن المطرب الحـزين يُخاطـب الشاب الذي يحمل طوال اليوم بندقية ويُراقب المارة، ويُعلق مُسدسًا ضخمًا على فخذه اليمنى.. وهي في الوسط بين الموسيقى والجندي، تُرخي مُطابقة عينيها فيتكاثر الجندي ويصبح جنـودًا، ويتجسـدون أمامها تغطي وجوههم النافذة العريضة.. شباب سوريون، مجنـدون من سوريا، لماذا يُجندون الشباب في كل مكان؟

وبما أن عنوان يومها «اللاشيء»؛ فلتملأه بالتفاهات ونتف من الذكريات.. تذكرت مسرحية «ثورة الموتى» لهنري إبسـن، كـم فتنتها وقتها حين ثار الموتى الشباب ورفضوا أن يُـدفنوا. تتسـلى بالأفكار، ترأف بنفسها بتوليد أفكار، تتساءل إن كان هذا الشـاب الجندي يعرف أنها تتأمله؛ لأنها لا تملك أي خيار آخر! لا يعرف أن ثمة نازحةً من سوريا قلبها مثقل بالألم تتأمله؛ لأن السأم يكاد يقتلها في باريس وهي بانتظار تجديد بطاقة الإقامة، تُحس بالتعب نيابةً عنه من حمل البندقية الثقيلة.

فجأةً يلتحق به جندي آخر يبدو توأمه، يحمل بـدوره بندقيـة ويثبت مسدسًا ضخمًا على فخذه اليمنى.. أصبح عليهـا أن تتأمـل مُجندَيْن وبندقيتَيْن ومسدسَيْن، وأن تعجن اللوحة بموسـيقى الجـاز وصوت المُطرب الذي يُفجر كل الأشجان.. رغبت أن تعرف اسـم المطرب لشدة إعجابها بصوته، تسرح بوجوه المـارة، لا يسـتوقفها

وجه، يبدون متشابهين، ينبثق من ذهنها سؤال: هل ما زال عنوان يومها «اللاشيء» أم «البندقية»؟

ألم تصبح البندقية مترسخةً في حياة الناس كرغيف الخبز.. تتذكر قصة قصيرة كتبتها ذات يوم بعنوان: «رغيف خبز ووظيفة»، كانت تحكي عن ذل الوظيفة، وكيف أن الراتب بالكاد يكفي ثمن الخبز، كم تبدو لها تلك القصة تافهةً الآن، لِمَ لا تكتب قصةً بعنوان: «رغيف خبز وبندقية».

يشلها فجأةً إحساس تام بالعجز لدرجة تشعر أنها لم تعد قادرةً أن تنقر على أزرار الحروف، تفيض صُوَر حلب المُدمرة من بؤبؤي عينيها، صور أطفال حلب المُغبرين والدماء متخثرة في أنوفهم وزوايا شفاههم، أطفال حلب من تراب، ولكنهم يلعبون ببنادق بلاستيكية أو بعصي يفترضون أنها بنادق.. ونشرات الأخبار بارعة في تصويرهم وتصوير الخراب المُروع حولهم.. ما أصعبَ الشعورَ بالعجز! كيف ستقاومه وهي أسيرة وحدة باريس التي تُطبق عليها كما تُطبق كأسًا فوق ذبابة.

المُجند الفرنسي يبدّل من وضعية البندقية، يبدو أنه تعب من الوضعية ذاتها، أصبح الآن يحتضنها كحبيبة، يُفاقم إحساسها بالعجز من إحساسها بالبرد.. فتقوم وتغلق النافذة، وتتلفت حولها نافدةَ الصبر كأنها تبحث عن خلاصٍ ما، خلاصٍ إسعافيٍّ مما هي فيه.. ترغب أن تصرخ: يا ناس، ثمة امرأة عاجزة عن تحمُّل نفسها.. ثمة نازحة سورية هائمة على وجهها في باريس، عاجزة عن تحمُّل أوجاع روحها وحنينها لوطنها، أنجدوها، ارأفوا بها!

ينحني كتفاها تحت تأثير ثقل مشاعرها، وتشعر أن نقرات موسيقى الجاز تصدح من فقرات ظهرها، كأن يدًا خفية تنقر على

فقرات ظهرها. تطلب المزيد من القهوة، وهي الرفاهية الوحيدة التي تسمح بها لنفسها في باريس، يستحيل أن تطلب وجبة طعام، تحسب أن ثمنها لو حولته إلى الليرة السورية يعادل راتب موظف مُعتبر. تفوح رائحة عرقها، تبتسم لأنها لم تُذعن لقواعد النظافة، ربما لأن أطفال حلب لا يستحمون، تحس أن رائحة العرق الإنساني غير كريهة كما يصفونها، بل هي رائحة الحياة.

المزيد من القهوة والمزيد من الماء، تشرب لتتسلى ولتمرر الوقت وليس لشعورها بالعطش، تستحضر وجه صديقتها الحلبية التي نزحت مضطرة إلى هولاندا، تتمنى لها التوفيق في امتحان اللغة الهولندية فائقة التعقيد والصعوبة، كانت قد تحدثت إليها منذ يومين وأحست بتوترها وقلقها من امتحان اللغة الذي رسبت به مرتين سابقًا، قالت لها: هذه فرصتي الأخيرة للنجاح وإلا فسيفرضون علينا عقوبات عديدة.

تخيلت صديقتها التي تماثلها تقريبًا في العمر -امرأة خمسينية- تجلس مُضطربة في قاعة الامتحان لتقدم امتحانًا في اللغة الهولندية.. تتذكر زياراتها إلى حلب الشهباء وصديقتها تنتظرها في محطة القطار، وكيف تقود سيارتها الفخمة برشاقة، تتذكر الفندق السياحي والصور العديدة التي أخذتها برفقة صديقتها، كم كانتا أنيقتين وسعيدتين.. تتذكر الحوار الأدبي الرائع الذي أجرته معها صديقتها في المنتدى الأدبي الذي يضم نخبة مثقفي حلب الشهباء!

تنهمر أمامها الصور، صور حلب ما قبل وما بعد، ما قبل الثورة وما بعدها، الآن حلب حطام، حطام مثلها.. لتعترف دون مُكابرة أنها امرأة محطمة ومتشظية، وتخاف الزمن، وتحاول كل يوم

صباحًا إيهام نفسها أن لحياتها معنى، ولكتابتها معنى، وما تقوله للناس حولها معنى، بينما غثيان يتصاعد من أعماق روحها كلما نطقت بكلمة.

تتمنى لصديقتها النجاح في امتحان اللغة الهولندية، تشعر بتسارع دقات قلب صديقتها قلقًا وخوفًا من الرسوب، أية إهانة أو أي مأزق أن يضطر نازح سوري وقد تجاوز منتصف العمر أن يتعلم لغة غريبة ويندمج في مجتمع غريب رغمًا عنه؛ لأن أصحاب القرار والدول العظمى في الإجرام قررت الحرب في وطنه.

أين اختفى الشرطي الفرنسي؟ أنتهت مناوبتُه؟ أم انتقل إلى زاوية أخرى من الشارع؟.. يستقر نظرها على رجل أنيق يلبس بدلة سوداء ويرافقه صديقه الكلب، الكلب أبيض اللون، قد يكون جميلاً؛ فهي لا تهتم بمعايير الجمال لدى الكلاب، وثمة شريطة حمراء تلف عنق الكلب.. تُخاطب نفسها بعبث: لِمَ لا يكون عنوان يومها «الكلب»، أو «الرجل المُلحق بالكلب».

كفى، كفى، كفى.. صرخ بها عقلها بأن تكف عن الهذيان، وعن اعتبار مشاعرها ذات قيمة وأفكارها ذات معنى. تتذكر الـ «كفى» الثلاث التي وصلتها في رسالةٍ مِن أحب الناس إلى قلبها بأن تتوقف عن التعبير عن آلام روحها؛ لأن لا طاقة لمن تبثه شجونها على تحمُّل معاناتها.. كانت ثلاث صفعات صباحية مدوية: كفى، كفى، كفى. لا أحد يحتمل معاناتك أيها السوري.

***

حلب المسلخ

ليست الوحيدة التي تسكنها عبارة تسمعها صدفة أو تقرؤها لأيام، كانت تنظر في ساعتها مُستعجلةً وقت النوم -كما لو أن للنوم موعدًا - تُسمي تلك اللحظة التي تنتظر فيها نعمة النوم «لحظة الرحمة»؛ فهي الرحمة الوحيدة في أيامها المشحونة بالقهر والتشتت والضياع.

لكنها تحاول مرارًا تأخيرَ ساعة نومها كي لا تستيقظ قلِقة في الليل لتعارك شياطين روحها وكوابيسها، ربما بقيت مُسمّرة أمام شاشة التلفاز لأن مذيعة الأخبار جميلة وأنيقة جدًّا وتُلصق على أجفانها رموشًا اصطناعية، كعادة معظم المذيعات.. حين غابت صورتها وأطلَّ بان كي مون -دائم القلق- ليصف أن ما يحصل في حلب أكثر وحشيةً وإجرامًا مما يحصل في أوحش مسلخ، أحست بطعنة الإهانة وبالغرابة في الوقت ذاته! هل يُعقل أن يُشبّه ما يحصل في حلب بالمسلخ!

فكرت أنه كان بارعًا في مادة التعبير، وأنه كان يكتب مواضيع إنشاء تُثير إعجاب مدرسيه وزملائه.. عرفت أن النوم صار مستحيلاً؛ فقد سكنتها عبارة بان كي مون: «حلب المسلخ»، وأحست بعاصفة غضب تجتاح روحها، كما لو أن المطلوب من

العالم كله وتجار الحروب والمحللين السياسيين وزعماء الدول العظمى في الإرهاب أن يصفوا فقط ما يحصل في حلب مجردَ وصف تعبيري مؤثر ترافقه موسيقى القصف والقنابل وأزيز الطائرات متزامنةً مع مشاهد الدمار المُروع الذي تعجز الزلازل والبراكين عن إحداثه.

عرضت الشاشة صور الحلبيِّين يطمرهم التراب بعد أن استخرجوهم من تحت أنقاض منازلهم، استوقفها منظر طفل مطمور بالتراب، لكنَّ ثمة دمًا متخثرًا في فتحتَيْ أنفه يحاول بأصبعه إزالته فيبكي، غابت صورة الطفل التي يبدو أن الكاميرا عرضتها بالصدفة دون أن تتقصد إظهار صورة الطفل.

«حلب المسلخ!».. عرفت أن هذه العبارة ستسكنها لأيام، وستتعارك معها لأيام، لكن المذيعة تابعت بكل رشاقة نشرة الأخبار ونقلت حرفيًّا الكلمة التي توجَّه بها بابا الفاتيكان إلى المسؤولين عن دمار حلب، وطلب منهم أن تصحو ضمائرهم؛ لأنهم يومًا ما سوف يحاسبهم الله.

تُرى، هل يتوقع بابا الفاتيكان رجاءً من كلامه؟! وهل توجد كلمة ضمير لدى هؤلاء؟! تمنت للحظات أن تكون مطمورةً بالتراب منتميةً لمسلخ حلب، تمنت بصدق أن تتحقق أمنيتها، وربما لو اعترفت لأصدقائها بتلك الأمنية لَما صدقوها واعتبروها نتيجة لحظة انفعال.

لكنها في تلك الليلة تحديدًا خطفت قلمًا أسود الحبر وكتبت تاريخًا (27 أيلول 2016)، وبجانبه عبارة «مسلخ حلب»، حفرت الحبر بقسوة في لحمها، كانت تشعر بغضب يتعاظم في روحها، وبرغبة بالصراخ وإطلاق سيل من الشتائم على حياة العار، على

وصف حلب بأنها أكثر دموية ووحشية من المسلخ، حشَتْ أذنيها بسدادات الأذنين المطاطية كي لا تسمع الحديث بين أختها وزوجها الفرنسي اللذين كانا يبحثان عن شقة في ريف باريس عن طريق الإنترنت، أصبحت عدوانيةً، وتمنت أن تقول لهما: اشتريا منزلاً في حلب المسلخ.

حين يبدأ ذهنها بالهذيان تعرف أنها في قمة ألمها، وأن لا أحد قادر على دعمها.. تحتاج أن تحكي مع سوري مُروع مثلها، مصعوق مثلها من وصف حلب بالمسلخ؛ لتُفرِغ شحنات روحها المحتقنة بالألم، لكن في باريس تعلمت بصعوبة الدرس الأهم للعيش فيها، وهو أن يبلع الإنسان الكلام بدل أن يقوله.

حين قالت لأصدقائها الذين لم يتركوا سوريا: إنها في سوريا تتكلم بحرية وطلاقة أكثر بكثير من وضعها حين تكون بباريس. لم يصدقوا، قالوا لها: باريس مدينة الحرية والتعبير عن الرأي. ضحكت وهي تتذكر تنوعات معاناتها النفسية الفظيعة في باريس، وقالت لهم: في باريس تتعلمون أن تبلعوا الكلام الذي يجب أن يُقال، والذي تتوق أرواحكم إلى قوله.

نصحتها أختها ألا تسمع، وأن تُخفف من الوقت الذي تخصصه للأخبار، وقالت لها ذات يوم: غير معقول أن تظلي مقهورةً لما يحصل في سوريا بتلك الطريقة! ستحرقين أعصابك. لم تردّ لأنها تعرف أن الحوار لن يؤدي إلى نتيجة، وأنها مسكونة بوطن هو كل كيانها وحياتها.

ابتلعت حبة الرحمة المهدئة للأعصاب، والتي ما عادت تؤثر فيها، وانتظرت أن تنام، كانت اللعنات والشتائم تتزاحم في حنجرتها، ولم تشعر كيف أن جسدها متصلب ومُتخشّب من التوتر وهي

وظلام الغرفة الذي يتحداه شعاع قمر شاحب يطل على حلب المسلخ، تحدق في الشعاع وتشعر أنه قادم من حلب، تنتفض من فراشها وتفتح النافذة وعيناها تبحثان عن القمر الوحيد مثلها، يبدو بدرًا وقريبًا، وتحيطه هالة ساحرة من النور الشفاف، تخنقها غصة؛ إذ تتخيل أن ثمة موتى أو معاقين أو جرحى في حلب يحدقون في القمر ويرجون الخالق أن ينقذهم، أحست بطريقة غامضة أن نظراتها تلتقي نظرات أحبائها ضحايا مسلخ حلب.

ما الذي تفعله هنا في باريس! روحها هناك في حلب الشهباء، روحها تحت الأنقاض تحاول انتشال طفل صغير جسده عالق تحت الركام، لكن يده الصغيرة حرة، أشبه بغصن وردة طالعة من شق صخرة.. اللعنة على بطاقة الإقامة! لا أريدها، لا أريدها؛ يذلني هذا الانتظار، أريد أن أبقى في سوريا، أريد أن أقيم في شفة الجرح، أريد أن أتأمل القمر من حلب الشهباء التي كانت تحتضنني وتستقبلني بمحبة كلما زرتها.. اللعنة على الدواء المنوم! كما لو أنه زادها نشاطًا!

ساعة تلو ساعة تصارع الآثار السّمية لعبارة: «مسلخ حلب»، تخشى أن تصرخ وتوقظ النائمين، ربما أختها وزوجها يحلمان بالبيت الريفي الذي سيشتريانه قرب باريس، وابنتا أختها المراهقتين تحلمان مع من سترقصان في حفلة عيد الميلاد، وهي بركان من الغضب يتخذ هيئةَ امرأة تعجز عن الاسترخاء، بل تزداد حنقًا ونقمةً كل لحظة.

لم تُبالِ أن الساعة تجاوزت الثانية فجرًا، تسللت من الشقة وهامت في الشوارع التي تتسكع بها عادةً لتقتل الوقت؛ فهي تشعر أنها في باريس إما قاتلة وإما مقتولة، إما أن يقتلها الوقت وإما أن تقتله، لكن في الحقيقة لا أحد يقتل أحدًا.

تمضي الأيام في باريس وهي في صراع مع الزمن، كما لو أنها تلعب معه لعبة ليّ الذراع.. البرودة الليلية منعشة، والشوارع مُنارة، فكرت أنّ في مثل هذا الوقت الظلام يغمر سوريا بسبب تقنين الكهرباء.. كانت شلة من السكارى بهيئتهم الرثة وقذارتهم المُقززة تفترش الرصيف المُقابل للرصيف الذي تمشي عليه، تمنت لو تنتمي إليهم لتغيب عن الألم والوجع.

لمحت بارًا غير بعيد، قصدته وقفزت على كرسيٍّ عالٍ بلا مسند وطلبت كأسًا من النبيذ الأحمر، أحست بنشوة عميقة هي نشوة الحرية، وهي تسند مرفقيها على الطاولة وتتأمل صف زجاجات كل أنواع المشروبات الكحولية مرصوفةً متلاصقةً بالمقلوب كي يسهل صب الشراب، لا أحد ينتهك خصوصية أحد، الكل غارق في سكره وحزنه وهروبه من حياة صعبة.

بحذرٍ تأملت الوجوه وأحست أنهم جميعًا يرغبون بنسيان واقعهم.. شربت النبيذ فأحست بحرقة في معدتها، تعرف جيدًا أنه لا يجب تناول الكحول مع الحبوب المنومة، لكنها لم تعُد تبالي منذ زمن بالقواعد الصحية، بل تتعمد انتهاكها.. طلبت كأسًا ثانيةً مُعتقدةً أنها ستنجح في بلسمة ألم روحها والتخلص من سموم عبارة «مسلخ حلب».

ورغم إحساسها بالانزعاج وهي تشرب الكأس الثانية من النبيذ فإنها واصلت الشرب، تفجَّرَ صداعٌ في رأسها وأحست بمعدتها تتخبط كأنها تريد لفظَ السم؛ دفعت الحساب وهي تلعن نفسها بأن هذا المبلغ الكبير على ميزانيتها لم يكن له لزوم.

مشت مشتتةً لا تعرف كيف تتعامل مع صداعها وغثيانها، كان السكارى قد غرقوا في النوم وبجانبهم زجاجات الكحول فارغة، لم

تشعر إلا بدوار عاصف جعلها تترنح وتستند إلى الحائط، وتدفّقَ القيء حامضيًّا من معدتها، بينما صداعها يتعاظم لدرجة شعرت أن دروز جمجمتها سوف تنفلع، بحثت عن القمر فلم تجده.. أختفى، أم أن نظراتها زائغة؟!

نسيت اتجاه بيت أختها، كان نور الفجر المُزرق قد تجاسر على تحدي الليل الكحلي، عليها أن تدخل بيت أختها بحذر كي لا تثير فضول أسئلتهم، وكالعادة في تلك الحالات التي تعاني منها من صداع فظيع، لا مُعين لها سوى أن تزرق نفسها بإبرة دواء الديكلون، غرست الإبرة في وركها، وأخفت الآثار، أحست بارتخاء جفنَيْها فارتاحت عارفةً أن هذه علامة النعاس.

أخذ الصداع يخفّ شيئًا فشيئًا كنور يتلاشى، أمكنها قبل أن تغرق في النوم أن تشهد الفجر وتنهمر الدموع من عينيها دون أن تشعر بأنها تبكي، غرقت في الغيبوبة وهي تتساءل: ماذا يحصل في «مسلخ حلب» الآن.

أفاقت ظهرًا، يا لنعمة أن تكون وحيدة في البيت كي لا تضطر إلى وضع قناع الإنسان الذي لا يسحقه الحزن! لأنها تحتاج وقتًا لتعديل ملامح وجهها، وبأمرها أن تسترخي وتبتسم قبل أن تخرج إلى أسرة أختها أو أخيها. فرحت أن ساعات الصباح ولت، كما لو أنها نجحت في الفرار من ساعات ألم ثقيل يحاصرها منذ استيقاظها، بحثت عن آثار صداع فلم تجد.

كانت قد اشترت منذ أيام نوعًا من الخبز أشبه بالكعك، مصنوعٍ من طحالب البحر، وممزوجٍ بالكثير من السمسم، ستأكله مع الجبنة وتشرب القهوة ولن تصغي لنشرة الأخبار.. انتبهت أن

أمها قد تركت لها رسالة صوتية على الموبايل تسألها: أين هي؟ وهل يُعقل أن تبقى نائمةً حتى الظهر؟ انفلتت عبارة «مسلخ حلب» من ذهنها وقت أن سمعت صوت أمها.

لم تكن ترغب أن تتحدث مع أحد، لكن عليها أن تتصل بأمها. سألتها: أكنتِ نائمةً حتى الآن؟ ردت بنزق: وهل يوجد قانون يمنعني من النوم لحظة أشاء؟ قالت أمها: ما بك متعكرة منذ الصباح؟ ردت: لا شيء، لكنني كالعادة أصابني الأرق البارحة. سألتها عن والدها التسعيني فقالت لها: إنه بخير، وإن الممرضة عنده الآن تحممه، وبعدها ستأتي ممرضة أخرى لتمرنه على المشي بعد كسر الفخذ الذي تعرض له.

كانت تصغي لها وهي تحس بالقرف من الحياة؛ ثمة مناطق يُقتل فيها الناس كما يُقتَل الذباب ولا أحد يبالي! وثمة مناطق يُجند طاقم طبي كامل لخدمة عجوز عمره قرن!!

كانت تعرف كم أنها قاسية مع الشيوخ، وكيف يُصيبونها بالاكتئاب، وكانت تعرف أنها تمارس إنسانيتها مع العجائز من بعيد؛ فلا طاقة لها على قربهم، لعلها تخشى -وهي التي وصلت إلى منتصف العمر وبدأت سنوات عمرها بالانحدار إلى الشيخوخة- أن تصبح مثلهم، إنها لا تطيق أرذل العمر، وتستشهد دومًا بعبارة نجيب محفوظ: «العمر هزيمة».

تُرى، لماذا لا تستطيع أن تكون أكثر حنانًا ورقّةً مع العجائز، وحتى مع والديها أيضًا؟! لن تلوم نفسها؛ فكل مشاعرها وأحاسيسها وأفكارها صادرها الموت السوري لشباب وأطفال سوريا، ولم يبقَ لديها أدنى شعور كي تتعاطف مع العجائز، بل تشعر كأنهم سرقوا الحياة من الشباب والأطفال.

في الواقع، كان إلحاح أمها في الاتصال بها صباحًا هو توبيخها وتحذيرها بطريقة لبقة من أن تستمرّ عن كتابة المقالات التي تُسيء إلى النظام في سوريا، وخاصةً مقالها عن السجون في سوريا، وعليها أن تتوقف. صرخت: كفى، كفى... أنت تعرفين أنني أكتب ما أريد، وإن لم تعجبك كتابتي فهذا شأنك. قالت أمها برجاء: لكنني أخشى عليك، أخشى أن يعتقلوك أو يمنعوك من السفر أو... قاطعتها بحماسة قائلةً: أترين إذا لديّ كل الحق في انتقادهم.. والآن أرجوك اسمحي لي أن أتسمم فطوري دون مواعظك.

«هيا كُلي، هيا كُلي».. عودتها باريس أن تكلم نفسها في عاصمة الوحدة المثالية، لكنّ ثمة شعورًا بالرضى كان يغمر روحها؛ لأنها أفاقت ظهرًا ونجحت في الهروب من ساعات يومٍ من السجن الباريسي.

***

هروب

تتحول حياتها في باريس إلى هروب: هروب من الزمن، ومن الأصدقاء، ومن الأهل، والأهم من الذات.. لا تجرؤ أن تغوص في أعماقها، تريد أن تبقى عائمةً على سطح الحياة كقشة تترك قدَرَها لتيار النهر، وهي تترك قدرها لتعاقُب الأيام.

تنتظر تجديد بطاقة الإقامة، عليها أن تسافر إلى فيشي لزيارة أخيها والعجوزين أمها وأبيها، كم تحب صوت القطار الرتيب الذي يُحرض ذكريات في خيالها، معظم الركاب يقرؤون أو يتابعون برامج على اللاب توب، وحيدة مع الذكريات، تؤنس نفسها الموحشة بلعبة التشبيه، نظرها سارح في الخضار والبيوت البسيطة التي معظمها يكسوها القرميد.

للحظات تحس بوجع الحنين، تشعر أنها في (إشتبغو)، قرية قرب الحفة، ومعظم سكانها مسيحيون، كم تعشق تلك القرية التي كانت تتجول في أزقتها، ورائحة الزعتر البري والأعشاب وأزهار الفتنة تعبق في المكان! تتمنى لو تعيش ما تبقى من عمرها في تلك القرية، لديها صديقتان تسكنان بيتًا بسيطًا له فسحة واسعة تغطيها دالية، تعتاشان من بيع الطعام للزبائن، تشتري منهما شراب البرتقال المركز ومربى المشمش والفطائر والكبة، وفي كل مرة تقصدهما مع بعض الأصدقاء،

لا تقبل الأحتان إلا أن يتغدى الزبائن، ويحضران لها الأركيلة.

تدرك أن السعادة تكمن في البساطة، تنتشي بشعور غامر يعمّ روحها وتحسه كغلالة حرير تُغلف جسدها.. حول الطاولة الواطئة الخشبية العتيقة يتحلق الأصدقاء ويشربون العرق، ويأكلون المجدرة، والسلطة، وأنواعًا لذيذةً من المقبلات، وهي تدخن الأركيلة، ولا تكف عن الكلام والضحك، وتشعر أنها راغبة بالرقص والتعبير عن فرحها في الحياة.

ترغب أن تضحك وتبكي في الوقت ذاته، وهي ترقص تريد أن تتكلم بلا توقُّف وتصف لأصدقائها سعادتها، وأنها اكتشفت أن السعادة ممكنة حتى في زمن الحرب الوحشية، وأنها سعيدة بعبق الأرض وعبق المحبة! أجل للمحبة عبق تشمه ممتزجًا برائحة الأركيلة وأزهار الفتنة، وذلك الشعور بالدفء والثقة اللذين تحسهما مع الأصدقاء.

بصعوبة تلجم نفسها عن الانطلاق، تُثبت نفسها على الكرسي وتُعنف نفسها: عيبٌ يا امرأة، يبدو أنك تقتربين من الجنون، الزمي حدودك. لكنها تفكر بأنه ربما كل واحد من أصدقائها لديه الرغبة ذاتها بأن يرقص رقصة الحياة كما رقص زوربا.

قرية (إشتبغو) ملاصقة للحفة التي تدمرت بالحرب السورية، أو تدمر معظمها.. كانت الحفة مشهورة بفاكهتها وخُضارها، وخاصةً العناب، كانت تعشق عناب الحفة وتشتريه كل يوم، وتتأسف أن موسمه قصير.. وحين تم قصف الحفة من قبل النظام والمعارضة معًا، ومات من مات ونزح معظم سكانها، يومَها كتبت مقالاً عن الحفة وضعت له عنوانًا: «الحفة الحافية»، وتخيلت أن لون عناب الحفة هو لون دم الشهداء.

يتوقف القطار الذاهب إلى فيشي في محطة نوفير، وينقطع حبل الذكريات.. تُنبه نفسها لضرورة أن تبدو سعيدةً أو على الأقل متوازنةً أمام أخيها وأهلها وأصدقاء أخيها؛ ففي المساء سوف يحتفلون بعيد ميلاده.

عاد القطار إلى استئناف الرحلة، وما إن بدأت العجلات تُصدر الصوت الرتيب ذاته حتى أحست أنها ترى كسبًا من خلال زجاج النافذة، وكأنها جنة الله في أرضه.

هي بدورها تعرضت للقصف والسرقة من قبل شبيحة النظام، وفرَّ أهلها مذعورين ذات ليلة بعد أن نبههم الجيش السوري أن المسلحين الإرهابيين قادمون لذبحهم من تركيا.

غصّت اللاذقية فجأةً بأفواج من الأسر الأرمنية الهاربة من الموت في كسب، في المنزل الفارغ تحت بيت أهلها سكنَ أكثرُ من أربعين شخصًا من الأرمن الهاربين من جحيم كسب.

أحست بحرقة لاذعة في عينيها، حين تعجز عن البكاء تحس بحرقة في عينيها، ما أجمل كسب ومنطقة تشالما المرتفعة عن سطح البحر، والتي تحس حين تكون فيها أنها أقرب إلى السماء منها إلى الأرض.

كلما اقتربت من فيشي يزداد تشوشها واصطخاب مشاعرها، لدرجة أنها خشيت أن تفقد السيطرة على أعصابها وتُفسد حفلة عيد ميلاد أخيها.. تشعر دومًا أن ثمة امرأةً في أعماقها تُشاكسها وتُحرجها: سيطري على أعصابك يا امرأة! سيطري عليها!

تعرف أن عليها أن تُذعن لهذا الصوت النابع من أعماقها، لكنها منهارة تحت وطأة ذكرياتها الساخنة الطازجة بين إشتبغو والحفة

وكسب واللاذقية؛ إنها هناك، روحها تهيم هناك ولا تريد أن تبقى في فرنسا، ولا تُريد التعقل، لطالما أتعسها العقل ونصائحه المتعاكسة مع ما يهوى قلبها.

أوقفي فيلم الذكريات، وركزي على حفلة عيد ميلاد أخوك الوحيد الذي يدعمك، ولطالما دعمك، يجب أن تردي له بعض الجميل بأن تكوني لطيفةً ومضيافةً مع ضيوفه.. لكنها شعرت بالعجز، وأن احتياطها من التمثيل والصبر قد نفد، ما هي إلا صرخة، أجل! إنها المرأة الصرخة، ولا تُجيد سوى الصراخ ألمًا.

لم تعد تؤمن بالكلام، وتشعر طوال الوقت أنها تبتلع الكلام الذي يُعبر عنها وتريد أن تقوله، وتحكي كلامًا سخيفًا يُرضي من حولها لأنهم يُريدون حديثًا مُسليًا خفيفًا خاليًا من المآسي، فقد طفح بهم الكيل من سماع مآسي سوريا اليومية والموت اليومي، وهي لا تستطيع تجاهل جرحها؛ فلقد تحولت هي نفسها إلى جرح، وخبرت أنواعًا مروعة من الآلام النفسية والأرق الذي لا علاج له بأقوى المنومات، حتى وصلت إلى حالة الخبل.

وصلت فيشي أخيرًا بعد أن أتقنت وضع المكياج على وجهها فبدت بأحسن حال. يا لخداع المظهر! تأنقت وسخرت من نفسها وهي تنفض الغبار عن حذائها ذي الكعب العالي، كانت المائدة شهيةً وعامرةً بأطيب المأكولات، وثمة كؤوس مختلفة الأشكال والأحجام: منها للنبيذ الأبيض، وأخرى للأحمر، ومنها للشمبانيا.. فكرت بسخافة اختلاف أشكال الكؤوس حسب المشروب.

احتل الحديث عن نوع جديد من سيارات الرانج روفر معظم الحديث، أما بقية السهرة فكانت عن الكلبة رائعة الحسن والجمال

التي تملكها امرأة فرنسية زوجها طبيب عربي، يقول ضاحكًا: إن زوجته تُصوّر كلبتها الحبيبة أكثر مما تُصوّر ابنتها!

كانت تبتسم طوال الوقت وتتظاهر بالسعادة لدرجة كادت تصدق حقًّا أنها سعيدة، حاولت أن تحرف الحديث قليلاً إلى سوريا، لكن لم يكن أحد من الحاضرين راغبًا بالغم والهم السوري، السؤال الوحيد الذي اعتبرته يخص سوريا حين سألها أحدهم: هل تسافرين من سوريا إلى باريس عبر بيروت؟ أجابت بنعم. فسألها: وما حال مطار دمشق -ضحك وتابع - ربما لا توجد رحلات فيه سوى إلى إيران وموسكو؟! لم تُجب.

صبت لنفسها مزيدًا من النبيذ الأحمر، كما لو أن النبيذ وحدَه يمكن أن يُساعدها لتؤدي دورها كأخت مُحبّة، وامرأة متوازنة، وابنة حنونة على والديها العجوزَيْن، فيما كانت طوال الوقت تشعر بضيق من حركات والدها البطيئة وتخشى أن تصير مثله ومثل كل الشيوخ؛ فهي لا تطيق أرذل العمر.

الحمد لله، لم يصدر عنها أي تصرف يبدو كالفضيحة، ونجحت في كبت صراخها بالضيوف: احكوا عن سوريا، احكوا عن سوريا المذبوحة، وعن مسلخ حلب الشهباء بدل الحديث عن سيارة الرنج روفر الجديدة والكلبة.

كانت تعتقد أنها ستنام بعمق حال انصراف الضيوف، لكن حالة عصبية من فرط التنبه أصابتها، وجعلتها تدرك أنها ستمنعها من الاستلقاء في السرير، حتى مسحت الظل الأزرق عن أجفانها وبقايا أحمر الشفاه اللزج عن شفتيها، أحست أنها خلعت القناع وعادت إلى طبيعتها الأصلية التي غدت عليها إنسانةً مُروعةً بالألم.

وبدت لها تلك السهرة وهي تستعرض وجوه أصدقاء أخيها وجهًا وجهًا، وتستعيد الأحاديث عن السيارات وصور الكلبة المدللة التي عرضت عشرات الصور لها زوجة الطبيب الفرنسية.

بدا كل تفصيل في هذه السهرة مُبطنا باللامعقول والخوف والنفور، صار جسدها يرتجف من التوتر والانفعال، وتساءلت: تُرى، ألم يفعل النبيذ فعله في تهدئتها ومساعدتها كي تسترخي!

ماذا حل بها حتى تشعر أنها تنوي أن تكسر الصحون الأنيقة، وحتى تكسر كؤوس النبيذ الأبيض والأحمر -يا للتفاهة- والكل نائم بعمق الآن! ولا أحد من الضيوف تحدث عن سوريا وأمواتها بالمئات كل يوم! لا أحد منهم تحدث عن أطفال حلب الذين يحتضرون تحت الأنقاض.. كلبة الفرنسية لها قيمة أكثر من كل أطفال حلب!

فكرت هكذا تنمو الأحقاد وتتشكل، جلست في المطبخ بمواجهة الأرنب الصغير الذي لا يتجاوز الشهرين من عمره، اشترته ابنة أخيها المراهقة، كان أشبه بطفل فاقد لحنان أمه، وحيد في قفص كوحدتها في باريس، يجفل لدى سماعه أقل صوت، يرتعش خوفًا إذا لمس أحدٌ جسدَه الصغير من خلال قضبان القفص، لم يكن من عزاء لها سوى الأرنب؛ فهو قلق مثلها ويُسلي نفسه بالاستمرار في أكل نوع خاص من الحشائش، يستمر بقضمها إلى ما لا نهاية، كما تستمر هي باجترار ألمها كل يوم.

نبهها دفق العرق من إبطيها وخلف أذنيها إلى أن انفعالها كبيرٌ، ارتبكت؛ فهي تشعر أنها في حالة خطرة حقًّا، وأنها تستمر بالمُكابرة بأن كل شيء على ما يُرام، وأنها تنجح في تمرير يوم تلو يوم دون أن تُثير فضيحةً أو تنهار تمامًا؛ لأنها في الواقع كانت تتوقع انهيارها كلَّ

لحظة، تتخيل أنها ستركع فجأةً وهي تمشي وتعلن هزيمتها وعجزها عن الاستمرار في حياة هكذا، وأنه لم يعد بإمكانها أن تتحمل ألم الغربة ولا الجحيم السوري، وأن الحقيقة كلَّ الحقيقة تكمن في تبديدها للوقت بإيهام نفسها أنها تكتب مقالاتٍ أو قصصًا، أو تشرع في كتابة رواية لا تعرف حول أي شيء ستدور، ولم تضع لها مُخططًا، كما لو أن كتابة الرواية لا تعني سوى شاشة لاب توب وهي تكتب أي شيء وتزعم أنها تكتب رواية.

الأرنب روح أيضًا مثلها، تُرى هل يتعذب؟ ألا يفتقد أمه؟ أية وحشية أن يحبس الإنسان حيوانًا صغيرًا وينتزعه من حضن أمه ويضعه في قفص. فكرت في السجناء السياسيين والسجن الانفرادي، تُرى كيف كانوا يحتملون؟

الكل ينام بعمق؛ شعرت بالحنق عليهم، فلا أحد منهم سألها عن سوريا. عار، بل قمة الخزي والعار أن يتحدث الناس بأي موضوع سوى موضوع سوريا، عار على العالم كله ألا يجن جنونه وينتفض ضميره بسبب الجرائم التي تحصل في سوريا.

اقتربَت من قفص الأرنب وحدقَتْ به بحنان وتعاطُف، أجفل ودخل إلى جحره؛ يا للمسكين المذعور، أية حياة هي مُبطنة بالخوف والذعر! وكي تكتمل معاناتها بدأ الصداع النصفي الذي يُرعبها يتشبث بعينها وصدغها، وعرفت أن الشقيقة بدأت وأنها ستذيقها أفظع ألم.

الثالثة فجرًا وهي ذاهلة تراقب أرنبًا مذعورًا مثلَها، مسلوخًا عن بيئته الطبيعية مثلها، الثالثة فجرًا وجسدها يزداد تشنجًا وتوترًا كوتر مشدود.. الشقيقة اكتملت وأذلتها وأجبرتها على ابتلاع عدة أنواع من الأدوية المُسكّنة، متى سيرحمها النوم وتنام؟

فتحت نافذة المطبخ فلسعها هواء بارد مُنعش، حتى الأشـــجار أحستها نائمةً، سوداء وباسقة، قد يكمن الموت في الليـــل، أخـــذت تضغط بشدة على صدغها كي تخفف ألم الشقيقة، لكنه كان يزداد، تعرف أن هذا الألم الشرس لا يهدأ إلا بإبرة مُسكّنة، لكنها لا تملك إبرةً ولا تريد إيقاظ أخيها. فلينهشها الألم حتى الإغماء أو الانتحار.

ربطت رأسها بشدة بمنديل وتكورت في الســـرير، وشـــريان صدغها ينبض مُسببًا لها ألمًا لا يُطاق، فكرت بالأرنب المسكين وأسمتهُ «السجينَ السياسيَّ»، ثم تدفقت صور متلاحقة من ذاكرتها عن قرية إشتبغو، وعن الحفة وكسب، وأدركت أنها طوال ثـــلاث ســـاعات استغرقتها الرحلة من باريس إلى فيشي لم تفكر إلا بسوريا، كيـــف ستتحمل سجن فرنسا، اللعنة على البطاقة، اللعنة على كل شيء!

وعند الفجر رحمها النوم ونامت وهي تقاوم شـــعورًا بالغثيـــان تحرضه دومًا الشقيقة في روحها، كم كان نومها مُضـــطربا! لأنهـــا كانت تفتح عينيها كل مدة، كان نومًا قصيرًا وسطحيًّا.

انتفضت من سريرها الثامنة صباحًا علـــى ألم في صـــدغها لا يُحتمل، ولم تجرؤ أن تشرب القهوة أو تفطر كي لا تتقيأ من شـــدة الألم، كان أخوها وابنته ووالداها في الصالون يشربون قهوة الصباح ويتحدثون برضى وسعادة عن سهرة البارحة، تظاهرت أنها ترغـــب بالمشي، سألتها أمها: ألن تغيري ملابسك؟ هل ستمشين بالبيجاما؟!

لم ترد، فتحت باب الشقة وطلبت المصعد، وأجفلـــت حـــين عكست مرآة المصعد صورة وجهها، كانت شاحبةً ونظرتها زائغة من ألم الشقيقة والألم السوري المُرتشح بملامحها، عجبت كيف لم يُعلقوا على شكلها!

مشت إلى الحديقة المقابلة للمنزل وانطرحت على مقعد خشبي، أغمضت عينيها مُتجاهلةً لسعة البرد وألم الشقيقة، تمكنت من محو كل شيء من ذاكرتها، لامست أصابع يمناها الأرض، أخذت تنتف العشب القصير الأخضر، وشعرت أنها شيئًا فشيئًا ستغور في رحم الأرض الحنون.. تمنت أن تكون تلك اللحظة قريبة.

من يفهم الموت ومن يفهم الحياة؟ وسخرت من أغنية: «الحياة حلوة بس نفهمها». فكرت أنها لم تفهم الحياة يومًا.. خدرها صوت حفيف أوراق الأشجار والهواء البارد المُنعش، تمنت لو يكون الأرنب الصغير معها، لو يُطلقون سراحه، لو يشعرون بخوفه وألمه؛ فهو روح.

أمضت يومها صامتةً مدركةً أن ضريبة العيش الآمن دون صدامات وتوترات مع محيطها هو في تعوُّدِها بلعَ الكلام؛ فعليها أن تمارس عادة بلع الكلام باستمرار. كقصة الرجل الذي يُعذبه سرٌّ يحفظه، فلا يجد طريقة لإراحة نفسه سوى حفر حفرة في الأرض وتقريب فمه منها والبوح بسره.

لم تنتبه أن ثلاث ساعات مرت وهي مُنبطحة على مقعد في الحديقة حتى نبهها تنميل أطرافها وكتفيها للوقت الطويل الذي قضته في أحضان الطبيعة، وحين دخلت البيت سألوها: كيف كان المشي الصباحي؟ تصنعت اللهاث وقالت: رائع. ضحكت ومررت نظرتها على وجوههم واحدًا واحدًا وقالت بسخرية: فعلاً المشي الصباحي رائع.

***

هذيان

لم يعد يعنيها أن تفهم نفسها، وأن تُفسر أو تُحلل الحالات النفسية المُتقلبة التي تمر بها، فقد أذعنت أن لا أحد يمكنه أن ينجو من الجحيم السوري الذي يسكن نفوس السوريين في كل مكان، لا همة لها أن تخرج من المنزل، لكنها تهرب منهم دون خجل أو تأنيب ضمير، تهرب من الإحباط الذي تولده في روحها الشيخوخة.

فتحت باب الغرفة الغريبة التي تنام بها في بيت أخيها -لأن كل شيء خارج سوريا غريب عنها-، أول ما طالعها منظر الممرضة التي تُشرف على تمرين والدها الذي تجاوز عقده التاسع على المشي، تفجَّر غضبها ساحقًا على الحياة، غضبٌ خامٌ طاغٍ، غضبٌ غير مصحوب بتأنيب الضمير، واكتمل غضبها حين وصل بعد دقائق الممرض الذي سيحمم والدها، بدت لها الحياة لا تُطاق.

كانت صور الأطفال تحت الأنقاض في حلب تتفتق في خيالها، مسكينٌ والدُها! ما ذنبه إن كان في أرذل العمر ووُجد في بلد حضاري يُقدس الشيخوخة!

بسرعة وهي تستعجل نفسها أقصى ما تستطيع كانت تسير بخطًى واسعة وسريعة في الشارع بالثياب ذاتها التي كانت تنام بها، وقد حملت على ظهرها اللاب توب الثقيل، وفي حقيبتها وضعت

كيسًا من اللوز لتقضمه حين يحين وقت طلبها للنبيذ أو الكمباري في المقهى ذاته في فيشي.

فكرت أن أحقادها تزيد مع الزمن، أحقاد يولدها الظلم والظروف المفروضة عليها غصبًا، الشمس وحدها نجت من شتائمها. وتداخلت مدينة فيشي مع اللاذقية وشعرت أن الأمكنة متشابهة، لكن حالتها النفسية تجعلها تختلف.

كانت تدخل محلات الألبسة والأحذية والنظارات وتتظاهر بالاهتمام وأنها ستشتري، فتنتها نظارة شمسية ماركة ديور حسبت أن سعرها يعادل ثمن بطاقة طائرة، يا لهول انهيار العملة السورية! ماذا تفعل في فرنسا حيث سعر نظارة شمسية بعد حسم (40%) من ثمنها مائتا ألف ليرة سورية!

لماذا تغيظ نفسها بهذه المُقارنات التي تعرفها سلفًا؟ هل لأنها ترغب بـ «هرس الوقت»، وهي الكلمة التي استقرت عليها بدل (قتل الوقت) تعبير «هرس الوقت» يُفرغ غضبها وأحقادها على حياة ظالمة، وحتى تهرس الوقت لا تملك سوى الكتابة والتأمل.

فكرت كم تشوهت علاقات الناس مع بعضهم في اللاذقية! وكيف خسرت صداقاتٍ عديدةً بسبب المأساة السورية التي جعلت كل واحد منكمشًا في شرنقة عزلته! كانت تتأمل بحزن وألم كيف تمر الأيام والأسابيع وهاتفها أخرس! وحين تبادر هي بالاتصال بأصدقائها يأتيها إحباطهم وهمومهم المعيشية، وقلقهم على أولادهم الشبان الذكور من أن يُسحبوا إلى خدمة الجندية!

كم من مرة شعرت أنها على وشك الانهيار في اللاذقية! تذكرت يوم كانت مع شلة من الأصدقاء، في مطعم جميل، في الهواء

الطلق، قريبٍ من آثار رأس شمرة، كانوا نحو عشرين شخصًا وأتاهم عبر الموبايل خبر أن انقلابًا في تركيا أطاح بأردوغان، وبدأ مطر الرصاص الحي، الرصاص القاتل من كل الجهات.

تأملت صديقتها تنطوي من الفزع، وتشبك يديها فوق معدتها متألمةً بشدة، وكيف هرب بعض الأصدقاء إلى مطبخ المطعم.. كان الرصاص يشق الظلام راسمًا خطوطًا حمراءَ متلألئةً ومنحنيةً، لا أحد يعرف أين ستسقط، وأي رأس أو صدر ستثقب.

قرر الأصدقاء العودة إلى اللاذقية رغم زخّ الرصاص وخطورة العودة، لكن الجميع خمّن أن حفلة الرصاص سوف تستمر حتى الصباح، كل شيء في سوريا يُعبَّر عنه بالرصاص، من تشييع الشهداء الذي يسمونه عرس الشهادة إلى الأعراس الحقيقية، إلى خبر الانقلاب على أردوغان! و لم ينتظر أحد ليتأكد من الخبر.

الآن، في مقهى فيشي تعيش وتستحضر ذلك الرعب الأخرس الذي جمَّدها وأصدقاءها في السيارة التي كانت تنطلق مسرعةً وسط أزيز الرصاص الكثيف الذي يشق الظلام، وقد اخترقت رصاصةٌ المرآةَ الأمامية للسيارة، وكان ممكنًا أن تقتل أحدًا منهم ببساطة؛ فأسهل شيء في سوريا هو قتل السوريين.

وحين دخلت بيتها وحيدةً، ولا يزال صوت الرصاص الابتهاجي بالانقلاب ضد أردوغان مُلعلعًا أشعلت ضوء البطارية؛ لأن الكهرباء كانت مقطوعةً، وجلست لتستوعب مظاهر وتجلّيات خوفها، كانت نبضات قلبها متسرعة، ورجفة مستمرة في ركبتيها، كما لو أن تيارًا كهربائيًّا يمر بركبتيها.

ما كانت قادرةً على تحمُّل وحدَتها، وبدا لها العيش في سوريا جحيمًا حقيقيًّا؛ فالسهرة التي أراد الأصدقاء الترفيه عن أنفسهم فيها انتهت بوابل من الرصاص.

رن هاتفها فانتفضت سعيدةً بأن ثمة مَن سيؤنسها في وحدتها، أتاها صوت صديقةٍ لها منهارةٍ تمامًا من الفزع؛ إذ كان منزلها قرب مبنى أحد فروع المخابرات، ويبدو أن الاحتفالات هناك تكون في أوجها، والسخاء بالرصاص بلا حدود؛ الدولة السورية كريمة بالرصاص فقط والبراميل المُتفجرة

من أين أتتها القوة لتهدئ من ذعر صديقتها المنهارة التي كانت تختبئ في ممر المطبخ خوفًا من رصاص يدخل من نافذة الصالون أو غرفة النوم! ربما ضعفُ صديقتها ولَّدَ في نفسها القوة. اتفقتا على تبادُل الاتصال كل نصف ساعة حتى يهدأ أزيز الرصاص.

وعند الخامسة فجرًا كانت الطاقة النفسية لصديقتها ولها في حالة انهيار تام ونفاد، شربت كأسًا من اليانسون الكثيف والمغلي كثيرًا، وابتلعت حبة ليكزوتان، ونامت وهي تهذي، وكلتا أذنيها تطن بأزيز الرصاص، وحين أفاقت باكرًا سمعت من نشرة الأخبار أن الانقلاب ضد أردوغان فشل، وأن ثلاثة سوريين ماتوا من الرصاص الاحتفالي الابتهاجي بخبر الانقلاب ضد أردوغان. كيف يمكن أن تستمر هكذا حياة، إن كانت مضطرةً أن تسميها حياة!

لم يبقَ أمامها سوى الهروب إلى باريس على الأقل لتعيش بأمان؛ لأن الرصاصة الطائشة التي اخترقت المرآة الأمامية لسيارة صديقها كان يمكن أن تقتلها أو تقتل أحد أصدقائها.

الإعياء يهدها ويُشتت انتباهها، ماذا ستفعل في اللاذقية؟ وكُلّ من حولها مُروع ومُحبط، لكنها لا تطيق باريس أيضًا عاصمة الوحدة والغربة، ماذا ستفعل؟ لم تَعُد تملك شيئًا سوى تأمُّل حياتها وحياة السوريين، وتحاول كتابة قصصهم وإعادة أسمائهم إليهم بعد أن صاروا أرقامًا بنظر العالم.

فيشي، فيشي.. ماذا أفعل في مقاهيك؟ هكذا كانت تتساءل كل يوم وهي تجلس في المقهى نفسه، حيث تطلب أولاً القهوة ثم القهوة دون كافيين، وإن رغبت أن تدلل نفسها تطلب كأسًا من النبيذ الأحمر.

الزمن أشبه بكيس فارغ عليها أن تملؤه بالذكريات، أو بتعبير أدق: بإعادة فهم وتفسير الذكريات.

تملك حرية اختيار الأشخاص والأحداث حسب مزاجها، اليوم استدعته وأسرته، استدعت وجه عمّها الوحيد الذي طالما دللها وهي طفلة، لكنه بعد أن تزوج ورُزق بأولاد تغيَّر، أو ظهر على حقيقته كما تعتقد. لا تعرف لِمَ تحس بسعادة خبيثة أن علاقتها معه ومع أسرته منقطعة تمامًا منذ أكثر من أربع سنوات؟! فهي كانت تعرف أية عقلية رجعية تسيطر على تفكيرهم، كانت تعرف أنهم يحتقرونها بأعماقهم لأنها مطلقة، ويعتبرون المطلقة فاشلة، وسيئة الحظ، ودون مستوى المرأة الشريفة والزوجة الصالحة.

كان عمها محاميًا لامعًا، وهو من تسلّم دعوى طلاقها من زوجها، ولم يكن يفوّت فرصة لتمنينها بأنه لا يتقاضى منها أجرًا.

وكان ابنه الوحيد مثال الرجل التقليدي الذي أكثر ما يُقدس العذرية والارتباط بفتاة لم يُقبّل فمَها إلا أمُّها، ولا تنسى يوم

اقترحت على أسرة عمها شابة رائعة ليرتبط بها، وكان قد سبق لها أن خُطبت وفسخت خطوبتها بعد سنة. يومها قالت زوجة عمِّها: لا أسمح بأن يتزوج ابني فضلة غيره، وقد تكون تلك الشابة -على الأغلب- قد مارست الجنس مع خطيبها، ونحن لا يناسبنا هذا النوع من الفتيات؛ نريد شابةً شريفةً بلا تجارب.

فكرتْ كم أن تلك المرأة عديمة الإحساس وتقدير مشاعر الآخرين! ترى هل نسيتْ أنها تتكلم أمام مُطلقة؟ ألا يعني كلامها صراحةً أنها تحتقر المُطلقات ولا تحترمهن؟

وكانت أهم صفة تميز أسرة عمها الوحيد هي السخرية من الناس، حتى أعز أصحابهم وأصدقائهم، فما إن يغادر هؤلاء حتى يبدؤوا بتقليدهم والسخرية منهم، لم يكونوا يحترمون أحدًا في الواقع.

وقد قاطعوها قطيعةً تامةً بعد بداية الثورة السورية؛ فمواقفهما متعاكسة، كانت تؤمن أن تلك الانتفاضة هي ثورة حقيقية قام بها الشعب السوري ضد الظلم، ولأجل الحصول على كرامته وحريته، أما أسرة عمها فكانت تسخر من هؤلاء الثوار وتسميهم رعاعًا. كانت مصلحتهم كاملةً مع النظام؛ حيث الفساد بأوجه.

إن ابن عمها المحامي أيضًا كوالده يربح الدعاوي لمن يدفع أكثر، وكان آخرَ كلِّ شهرٍ يجمع في مكتبه القُضاة ويوزع عليهم الرشاوي، حتى أنها حين كلفته ذات يوم بدعوى ضد مستأجر لا يدفع إيجار بيت تملكه طلب منها -هي ابنة عمه الوحيد- رشوةً بحجة ضرورة تقديمها للقاضي كي تربح الدعوى.

كان يتباهى بأن الفساد أوصله إلى أعلى مراتب الكسب وصار من أشهر المحامين، والشعار الذي يسير عليه: «من يدفع أكثر يربح

الدعوى»، وكان يبرر سلوكه بأنه مُضطر إلى هـذا السـلوك؛ لأن القضاء في سوريا فاسد، ولأن القضاة يعتبرون الرشوة حقهم.

لكنها في أحيان كثيرة كانت تشعر بالألم والعار بسبب القطيعة التامة بينها وبين أسرة عمها، قطيعة عمرها بعمر الثـورة السـورية، تُرى هل ساهمت الثورة في إسقاط الأقنعة عن الناس؟ ولكن أية قسوة في القلوب والمشاعر حين يجدها عمها وأسرته امرأةً وحيدةً تعرضت للكثير من المشكلات ولا يخطر ببالهم الاتصال بها! كانت تُفكر بـأن عمها حين سيموت لن تعزي به، وأنها حين ستموت لن يعزون بها. يا لقسوة البشر! يا لبشاعة أحقادهم!

وهن يهدّها هدًّا رغم أنها لا تبذل أي جهد جسـدي؛ تعـب الروح لا يعادله تعب، متسولة لحياة كريمة، مفجوعة بوطن جـريح وشعبها الذي يُقتل أمام العالم كله ولا أحد يبالي، متنقلة بين اللاذقية وباريس وفيشي، من قطار إلى قطار، ومن مدينة إلى مدينـة، ومـن مقهى إلى مقهى، عُدّتها الذكريات وجهاز اللاب تـوب، غجريـة حزينة، تجوب الأمكنة شاعرةً بغربة متعاظمة، كلما انتقلت من مكان إلى مكان تقاسمت قدرًا وحشيًّ القسوة مع أحبائها السوريين.

يا لوحشتها هذا اليوم! يا لبؤسها وإحساسها بالعجز والتخلي! صارت لا تعرف أية مشاعر وأية حالة نفسية تنتظرها كل يـوم، لا تملك قرارها، عليها كآلاف السوريين انتظار رحمة العالم، عليهـا أن تحصل على بطاقة الإقامة حتى لو انهارت أعصابها من الانتظار، حـتى لو أذلّتها الوحدة واضطرتها الإقامة في بيت إخوتها إلى ممارسة عـادة بلع الكلام، أجَل بلع الكلام، أو فلتذهب إلى منطقة نائية وتصـرخ حتى تتقطع حبال حنجرتها.

«ما أتعسني! ما أتعسني!».. كرَّرت هذه العبارة، بينما جفناها يزدادان ثقلاً حتى كادت تُغمض عينيها إعياءً. ترى ما فلسفة المتسول في الحياة؟ أليست متسولة بطريقة ما؟ ألم يتحول الشعب السوري إلى متسول في كل بقاع العالم ينتظر التعاطف والرحمة.

لن تعود إلى البيت إلى بيت أخيها؛ حيث ستجد أمها العجوز تقرأ لوالدها العجوز الذي فقد نظره وما عاد بقادرٍ على القراءة، لكنه يميز الأشكال والحركة في الآياد، وتحصي له عدد الإعجابات بكتابتها، وبما كتب كل واحد من أصدقائها على الفيس بوك.

لا تستطيع، لا تستطيع أن ترى النهايات، تريد طاقة الشباب وحيويتهم تُعديها، أما كآبة الشيخوخة وأرذل العمر فيُشعرانها أن الموت أقرب مما تتصور، وأن الشيخوخة هزيمة ما بعدها هزيمة.

كغجريةٍ وضعت اللاب توب في كيس علّقته على ظهرها، دفعت حساب فنجاني القهوة وتركت بقشيشًا للنادلة الشابة التي لا تكف عن الحركة، شابة قدّرت أن عمرها لا يتجاوز العشرين، تمنت لها السعادة، وأحست بألم وخيبة أنها في كل تلك المرات الكثيرة التي قصدت فيها المقهى ذاته لم ينشأ أي حديث أو تواصل إنساني بينها وبين النادلة.

يا لوحشة روحها! نظرت في ساعتها كما لو أنها تحسب كم من الساعات بقيت حتى يهبط الظلام وتغرق مجددًا في النوم غير عارفة ما عنوان الغد، فقد يكون أكثر وحشةً وألمًا من يومها هذا.

صدمها البرد حين خرجت من المقهى، تذكرت خريف اللاذقية الساحر بطراوته، وبحر اللاذقية المتلوّن كل يوم بلون، من الفضي إلى الأزرق بدرجاته المختلفة إلى الأخضر الفضي، وأحيانًا يجمع عدة

ألوان معًا. «يااااه» لو كانت الآن في اللاذقية في أحد المقاهي البحرية الرائعة تدخن الأركيلة مع إحدى صديقاتها، وتتكلمان حديث روح لروح وقلب لقلب وعقل لعقل! يا للعزاء الـــذي يقدمـــه الكـــلام؛ روحها مشققة من ألم الحرمان من الكلام! هيا ابلعي الكـــلام هنـــا، ابلعيه كي يمر الزمن بسلام وهدوء كهدوء الموتى.

***

صقيع الروح

منذ زمن لا تستطيع تحديده بدقة فقدت القدرة على التنبؤ بحالتها النفسية، لكنها تحب أن تربط بين تلك الحالة وبداية الثورة السورية.. كم من مراتٍ أفاقت وهي بحالة هستريائية دون سبب محدد! ولا يعنيها تحديد الأسباب، طالما عجزت عن تحمُّل تلك الضغوط النفسية الفظيعة والحالة النفسية الهستريائية منذ الصباح، فابتلعت حبوبًا منومةً مع الفودكا وهربت من عالم الصحو.

لم تعُد حياتها مُحتملةً، تُدرك أن ثمة إرادة كونية تريد سحقها وهرس بذور الأمل في روحها، تشعر برحمة النعاس والغيبوبة التي تخطفها تدريجيًّا من عالم الصحو إلى غيبوبة النوم، تشعر أنها تغرق تدريجيًّا في هيولى رخوة ناعمة كما لو أنها تغفو فوق غيمة وتغور في مادتها تدريجيًّا.

تعبر وجوه الإخوة والأصدقاء خيالها، تبتسم لهم بسخرية؛ فالألم الذي هرس أرواح السوريين خلق شرخًا في العلاقة بينهم، فما عاد بمقدور أحد أن يدعم الآخر، ولا أن يستمع شكواه حتى، تُفضل أن تلجأ إلى معونة الأدوية المهدئة والمنومة بدل معونة الأصدقاء والأقارب.

أفاقت هذا الصباح التشريني البارد في فيشي بإحساس خانق بالغربة وعدم التحمل، كان العجوزين يلبسان روبًا من الجوخ

الكحلي ويرشفان القهوة، بدا وقارهما كوقار جثة، وعصف غضبٌ طاغٍ بروحها، حملت حقيبة ظهرها التي تضم اللاب توب، ولبست الكنزة الصوفية العتيقة فوق منامتها، وانطلقت هاربةً من الوجهين الأليفين الطيبين؛ لتعفيهما على الأقل من عاصفة غضبها التي كادت تنطلق بسيل من الشتائم على الحياة لو لم تلجمها.

لم تكن راغبةً بالخروج من المنزل؛ فهي متعبة من نوم متقطع، ومن أرق مزمن، وتشعر بالبرد، لكنها أدركت استحالة تواجدها مع العجوزين اللذين لا يغضبان وراضيان عن كرم القدر الذي يمد بعمريهما يومًا بعد يوم وسنةً تلو سنة.

كان البرد شديدًا في الواقع رغم سطوع الشمس الذي يغش بأن الطقس دافئ، مشت وهي تفكر بأن صقيع روحها يفوق برد الصباح في فيشي، وبأن لا أحد تستطيع أن تتصل به أو تبكي على كتفه وتبثه أوجاع روحها.

الحادية عشرة صباحًا دخلت المقهى ذاته الذي تُبدِّد فيه وقتها بالكتابة وتأمُّل الناس حولها، طلبت القهوة فنبهها النادل أنها لا تستطيع أن تبقى أكثر من نصف ساعة؛ لأن موعد الغداء سوف يحين، أذعنت، شربت قهوتها وهي ترمق ما كتبته منذ أيام بسخرية ودون ذرة تعاطف أو انفعال، وبدت لها الكتابة أكبر خدعةً تمارسها على نفسها كي تتحمل تلك الأشهر الطويلة بين باريس وفيشي.

صوت مرتعش من الخوف طلع من روحها وهمس بأذنها بأن عليها أن تكتب، لكنها ظلت هامدةً ترشف القهوة الحامضة التي لا تطيق طعمها؛ فهي تحب القهوة العربية الكثيفة.. حزمت أغراضها؛ فقد حان موعد الغداء.

وبدأت تتسكع في الطريق الوحيد الذي يضم المخـــازن ذاتهـــا، تدخل بعض المخازن وتحسب أسعار البضائع بالليرة السورية، كما لو أنها لا تعدم وسيلة لإغاظة نفسها وإغضابها بدلَ تهدئتها.

رأت أعمى يتلمّس طريقه بعصا رفيعة يمسح بها الفضاء أمامـــه، ودت لو ترافقه وتدعوه لشرب النبيذ، وتسأله عن شـــعوره كونـــه أعمى.

تابعت طريقها متجاهلةً قرصة البرد التي تركزت في قـــدميها، أحست بوهن ونعاس وتاقت أن تعود إلى بيت أخيها وتنام، لكـــن ما إن عكس خيالها صورة والديها العجـــوزين حـــتى فضـــلت أن تسقط مغشيًّا عليها في الطريق من التعب والإرهاق وألا تعـــود إلى البيت.

تعرف كم هي قاسية! لكن الشيخوخة تطـــيش صـــوابها، لا تعرف لماذا؟ أقل تنهيدة تصدر عن المسكينين تجعلها في حالة فظيعـــة من الغضب، إنهما بريئان من أحقادها علـــى الشـــيخوخة، لكنـــها تعاملهما كمذنبين، كما لو أن أرذل العمر الذي وصلا إليه يُغيظهـــا ويتحداها بطريقةٍ ما.

عادت إلى المقهى ذاته فاستقبلها النادل بترحاب، فقد انصـــرف معظم الزبائن الذين تناولوا غداءهم في المطعم، فردت بضاعتها -كما يحلو لها أن تصف الكمبيوتر- وطلبـــت كأسًـــا مـــن الكمبـــاري، وأخرجت كيسًا من اللوز من حقيبتها، طفـــت صـــورة والـــديها العجوزين المسكينين في خيالها، وتخيلتهما يتساءلان: ما حالها، تظـــل غاضبةً ونزقة؟ لكنها لم تشعر بالذنب؛ فهي تعفيهما مـــن وجودهـــا المُكهرب بالسخط والغضب دومًا.

فيما مضى كانت تصبّ جامَ غضبها أمامهما، كما لو أنهما الجمهور الذي من واجبه أن يستمع لصراخها، لكنها أدركت أن العمر هزمهما وأنه لم يعد لديهما طاقة لتحمُّل نوب غضبها الكاسحة، فهما متصالحان مع الحياة، وخاصةً أمها التي تملك طبعًا متفائلاً دومًا وتؤمن أن المأساة السورية سوف تنتهي قريبًا ويعود كل شيء كما كان..

أرخى الكحول أعصابها وأنهكها الإحساس الدائم بالبرد، شعرت بفراغ روحها، تحديدًا صقيع روحها، لكنها كانت امرأةً فارغةً، مجرد هيكل، يمكنها أن تملأه بما تريد، ترى ماذا تريد؟ وهل تركت لها الحياة مجالاً لتريد أي شيء.

استدعت إلى خيالها صورة بحر اللاذقية، يا لروعته في الخريف! كيف يتلون كل يوم بلون؛ من الكحلي إلى الأزرق بتدرجاته إلى الأخضر اللماع، وأحيانًا تتماذج عدة ألوان على سطحه! يا للمتعة التي لا تعادلها متعة يولدها في روحها بحر اللاذقية!

وهي تدخن الأركيلة وتشرب عصير الجزر، لا تتخيل مدينة دون بحر، البحر هو منتهى كل الأمكنة والمدن، وفي كل مدينة تزورها تشعر أنها تبحث عن بحر.. فلتملأ فراغ روحها ببحر اللاذقية، ومناظر السباحين غير المبالين ببرودة الماء، والصبية الصغار يصرخون بابتهاج وهم يسبحون بثيابهم الداخلية.

هبّة ساخنة مفاجئة جعلت جسدها يرشح بالعرق، تفاجأت؛ إذ اعتقدت أنها انتهت منذ أشهر من هبات سن اليأس، لعل الكحول أو الانفعال يُحرضها، أغمضت عينيها كي تكثف صورة بحر اللاذقية وتسافر بروحها إلى هناك، إلى حيث تنتمي، عساها تلتحم بروحها

التي تركتها هناك عند مدخل اللاذقية الجميل، حيث اللافتة الكبيرة لجامعة تشرين بالأحرف الزرقاء اللماعة والمصنوعة من كهارب صغيرة مُضيئة.

في كل مرة تعود من سفرها ترى روحها كامرأة من نور، شفافة ورهيفة تنتظرها عند مدخل اللاذقية، فتلتحمان.. الآن تجلس في مقهى بمدينة فيشي شاعرةً أنها قربة جوفاء بلا روح، وكيف يحتمل الناس الغربة! ألا يُصابون بصقيع الروح؟!

لم تستطع الاحتفاظ بصورة بحر اللاذقية في خيالها، تعجز عن التركيز، واعيةً تمامًا بصقيع روحها وهزيمتها، هاربةً من وجهَي العجوزين اللذين أوصاها الله بوصيته الأولى أن تكرمهما: «أكرمْ أباكَ وأمكَ لكي يطولَ عمرُكَ».

مشاعر مُختلطة من العجز والتعب والنعاس الذي يولده فيها البرد والكحول تسيطر عليها، لكنها تستسلم لها؛ فهي لا تريد العودة إلى البيت إلا لتنام، لا تريد أن تلتقي أحدًا، ولا أن تطلب مساعدة أحد.

ما أنا سوى نازحة سورية مُرفهة مقارنةً ببقية النازحين؛ لأن أخي وأختي يؤويانِي في منزلهما.. هذا ما أحسته تمامًا أنها مجرد نازحة، هائمة على وجهها، مشردة وتعيسة، وتفتقد وطنها وروحها التي تهيم باحثةً عنها في طرقات هذا الوطن.

لتعترف أن كل يوم هنا يجعلها تخسر ألق روحها، الذي كانت تشعر به في اللاذقية رغم الظروف الصعبة واللاإنسانية، لكنها هنا غير مرتبطة بالمكان والناس بأي رابط سوى كونهم من جنس البشر.

ركزت نظراتِها على المرأة الفرنسية التي تشرب الشوكولا الساخنة، وتصبغ أظافر يديها باللون البنفسجي، تفحصت تجاعيد

وجهها وتهدُّل رقبتها، شعرت بالنفور منها، نظرت في ساعتها وحسبت متى سينتهي هذا اليوم وتنام؛ لتستأنف يوما قد يكون أشد قسوةً وبشاعةً من يومها هذا.

رن هاتفها، نظرت باحتقار إلى اسم المتصل، كان رجلاً تجاوزَ الستين بسنوات، مُطلق ويحوم حولها لتكون عشيقته، لم تردّ، بعد دقائق أرسل إليها رسالةً مكتوبةً: أين أنت؛ اشتقت إليك؟! فكرت أنه لا يعني لها أي شيء ولا تطيقه، ولا تراه جذابًا، ومع ذلك فقد ارتضت أن تخرج برفقته مرتين، مرة اصطحبها إلى سوق واسع للألبسة المُستعملة، واعترف لها بأنه يشتري معظم ملابسه من هذا السوق، ومرة دعته لشرب كأس نبيذ كنوع من الشفقة الممتزجة بالاحتقار، ربما لشدة بخله أو فقره.

ضحكت من قلبها حتى اهتزَّ بطنها من شدة الضحك؛ لأنها اكتشفت كم كانت حياتها عامرةً بالبخلاء، وخاصةً الرجال! لدرجة أنها فكرت في كتابة رواية عن كل الرجال البخلاء الذين مروا في حياتها.

المقهى يضج بأصوات الزبائن على خلفية موسيقية، فكرت أن هذا ما تحتاجه تمامًا، أن تغيب عن نفسها الكئيبة الساخطة المتوحدة، وأن تذوب في الضجيج وتشعر أنها وسط حشد من الناس حتى لو كانوا غرباء.

***

هواية

هل يتحول الحزن إلى هواية؟ حين يهيمن على الروح طاردًا كل المشاعر الأخرى، تستسلم مُرغمةً لإيقاع مرور الأيام الذي ارتبط بإيقاع موسيقى الجاز في المقهى الذي تقصده كل يوم لتكتب، لتشهد على بؤس حياتها وحياة أحبائها السوريين.

تزعم أنها تكتب رواية، وأن الرواية السورية لا تنطبق عليها شروط الرواية التقليدية؛ الرواية السورية تُشبِه حياة السوريين، مُتشظية، مُفككة، لا يهم أن تكون مترابطة وذات حبكة وتسلسل أحداث، الكتابة يجب أن تكون أشبه بصورة موازية للحدث، للضياع السوري واليأس والإحباط؛ لذا لم تعد تُعنف نفسها وتُقلقها بضرورة كتابة رواية مُتماسكة! يستحيل أن تكون مُتماسكة في ظل هذا التشظي والضياع.

تتحدث إلى أصدقائها في سوريا، كلهم مُحبطون، يشكون غلاء المعيشة وتقنين الكهرباء والماء، تتمنى لو تُعاني من كل مُنغصات العيش في اللاذقية، فقط لو تترك سجن باريس وتعود إلى حيث تنتمي روحها، ربما من حسن حظها أن ثلاثة أشهر مرت وقد نجحت في إخفاء أحزانها وإحساسها أنها على وشك الانهيار.

تشعر بالفخر حين تستعيد تلك اللحظات من الانهيار النفسي؛ حيث يُصيبها وهنٌ رهيب يدفعها إلى الاتصال وطلب المساعدة

والنجدة، لتطلق العنان للوجع والدموع للانطلاق، لكنها -وبصعوبة بالغة- تنجح في لجم تلك المشاعر؛ فهي لا تريد أن يُمننها أحد بمساعدتها والتخفيف عنها؛ تعرف تمامًا؛ فلا وقت لديهم لأحزانها؛ إذ إنهم ينشدون الفرفشة والتسلية بعد يوم عمل شاقّ.

صار الوجع السوري يُشكل همًّا وضغطًا نفسيًّا كبيرًا عليهم، حديثهم المُفضل: أين يقضون الإجازات؟ ومشروع شراء منزل في الريف؟.. تشعر أنها من كوكب آخر، ثمة ليالٍ تسميها الليالي الجحيمي؛ إذ تستيقظ مُجفلةً الثالثة فجرًا، تنظر في ساعتها وتقرأ: الساعة الثامنة! كيف يغشها نظرها؟ أإلى هذا الحد هي مشوشة؟

ينشط خيالها بصور غريبة لا واقعية، تتخيل أن رسامًا عبقريًّا يريد تجسيد حالتها برسمٍ ما، سيرسم قلبًا متورمًا من القهر، قلبًا كله كُتل وتورّمات أشبه بالكتل السرطانية ويحيط به ظلام دامس.

ثم تبدأ بالفزع من نفسها، ماذا تفعل نازحةً في الثالثة فجرًا! وصمت أشبه بصمت القبور يحيط بها ولا معين لها، تمشي حافيةً إلى المطبخ وتشرب نصف كأس من النبيذ، يزداد توتُّرها العصبي عكس ما توقعتْ، تعود إلى فراشها تتلّوى من الأرق والقلق، تستحضر وجوهًا عساها تحنو عليها في جحيم مخاوفها، لكن كل الوجوه يلفّها الظلام.

تتجاوز الساعة الخامسة فجرًا، تبدأ بسماع أصوات في الشارع، تفكر بوالدها الذي تجاوز التسعين من عمره، كيف يتحدث بحماسة عن أمله بحضور عرس حفيدته -ابنتها- بعد عام! ترغب أن تسأله هل يأمل أن يعيش عامًا آخرَ، وقد يعيش عشرة أعوام أو أكثر، وهي تشعر أن الموت قريب منها لدرجة يُمكن أن يخطفها في كل لحظة.

غريبة تلك العادة لديها، فكلما تفاقمت أزماتها النفسية أكثرت من شرب الماء، كما لو أن الماء وحده يلطف حريق أعماقها، تبتلع الحبة المنومة وتستلقي على ظهرها بانتظار رحمة النوم، يجب أن تُوقف نوبة الذعر بأية طريقة، تشعر أنها يستحيل أن تغفو، ولكنها تنام أخيرًا لا تعرف كيف!

تستيقظ مشوشةً ورخوةً من تأثير المنوّم، تشرب كوبين من القهوة، تلف الشال الصوفي حول عنقها وتلبس الجاكيت من الجوخ وتنطلق إلى اللاشيء، إلى الفراغ، إلى الضياع، إلى التشتت، إلى قتل الوقت الذي يقتلها، تحب أن تدخل المخازن الشعبية التي تضع بضائعها في صناديق، تحب جمهرة الناس، تنبش في الثياب بحماسة، وكل قطعة ملابس مُلصق بها قطعة بلاستيكية تصدر صفيرًا فيما لو حاول أحدٌ ما السرقة، تنبش معهم وتتفرج عليهم بحنان مُحاولةً أن تحزر ذوق كل منهم.

حوالي الظهر تتصل أختها في استراحة عملِها، يليه اتصال أخيها، يسألانها: كيفك؟ ترد: تمام، «منيحة». يتبادلان بضع عبارات لا تعنيها ولا تتذكرها، وغالبًا ما يستأذناها لقطع المكالمة بسبب العمل.. أحيانًا تشعر أنها تود لو تصرخ بهما حتى تتمزق حبال حنجرتها: أنا أتألم.. أتألم.. ألا تشعران بي؟! لكنها لا تفعل، بل تكفّ عن الرد على اتصالاتهما، وحين تضطر إلى الرد بعد عدة محاولات من قِبلهم، تدّعي أنها مدعوّة للقاء أصدقاء للغداء أو العشاء معهم.

أصبحت وحدتها مع نفسها أكثر رحمةً من لقاء الآخرين، حتى أختها وأخيها، تتأمل حياتهما بشفقة، مستعبَدين للعمل، ثم واجباتهم اتجاه أولادهم ثم والديهما الطاعنين في السن، أما هي فلا مكان لها،

لم يعد من مكان شاغر لها، لا يهمها إن صدَّقاها: أهي فعلاً مرتبطة بمواعيد مع أصدقائها، أم تتهرب منهما؟ ربما الأمر سيان بالنسبة لهما.

كم من مرةٍ وقفت على بُعد خطوات من عيادة أختها منتظرةً خروجها، وما إن تخرج وتدخل باب الكراج حتى تتسلل إلى العيادة وتفرد أشياءَها وروحها، الوحدة تعني صحنًا واحدًا وكأسًا واحدةً ونخبًا واحدًا تقرع به كريستال الهواء، تُعدّ غداءها وتأكل بشهية، ليست شهية عادية بل شهية الشفقة على النفس، تقول لنفسها مع كل لقمة: ألف صحة.

يا للتسلية التي يقدمها لها الفيس بوك! تعرف أخبار الأصدقاء المنتشرين في كل بقاع الأرض، كلهم يجمعهم الشجن والحنين، والبعض يتظاهر بأنه بأحسن حال، لكن كما أن للصدق رائحةً، وللنفاق رائحةً، تشم رائحة الصدق والنفاق من الكتابات.

تكتب كلَّ يومٍ رسالة تفيض بالأمل والتفاؤل لابنتها في بريطانيا، لا يهمها إن صدقتها ابنتها أم لم تصدقها، فالمهم أن تمارس دورها كأم قوية يُعتمد عليها. تُثني على نفسها لإتقانها هذا الدور.

ساعات من التسكع في طرقات باريس الساحرة من ساحة الباستيل إلى ساحة ناسيون، مُهدِرةً الوقت في الدخول إلى الدكاكين والجلوس في مقاهي الرصيف، متذكرةً تفاصيلَ لم تعتقد أنها ستتذكرها، مثل فلافل الملك، تلك الدكان القذرة الصغيرة التي تبيع الفلافل، والمفارقة المُضحكة بين كلمة فلافل وكلمة سلطان.. تُصبح كل ذكرى مهما كانت تافهة ذات معنًى ومتكأٍ ودعم نفسي؛ كي لا تشعر أنها تائهةً في فراغ.

***

تداخل!!

استوقفتها تلك الكلمة التي لم تتوقعها أبدًا و لم تفهمها حتى! لكنها كانت تحرق عينيها وهي تقرأ رسالة الموظفة في الجريدة اليومية التي تكتب فيها كل يوم أحد، منذ أكثر من سنة تكتب مقالات عن مواضيع تخص الأسرة العربية، مع أنها تتمنى أن تكتب عن جرح وطنها، ومن حين لآخر كانت تجرب أن ترسل إليهم مقالات عن سوريا الجريحة، فلا ينشرونها؛ لا يريدون وجع القلب كما يقولون.

فجأةً توقفوا عن نشر مقالاتها دون أن يحددوا لها السبب، ودون أن يكلفوا خاطرهم بأن يكتبوا إليها رسالة، للوهلة الأولى حاولت أن تعذرهم بأن مقالاتها لا تصلهم، فأرسلت رسالةً إلى السيدة التي ترسل إليها مقالاتِها عادةً، فلم ترد، اعتقدت أنها في إجازة ولا تقرأ الرسائل، فأرسلت إليها رسالة ثانية، ولا جواب، لعل ثمة خطأً ما في عدم نشر المقال.

لكن الأحد التالي قُوبلت بالإهمال نفسه وبعدم نشر مقالها الأسبوعي في وقته المحدد، أحست بألم الإهانة والغيظ وأرسلت إليهم رسالةً قاسيةً تطلب تفسيرًا لعدم نشر مقالاتها، وكان الجواب أخيرًا كالتالي: إن إدارة المجلة التي تنشر عندها قد انتبهت أنها تنشر في جريدة أخرى وبنفس المدينة (لندن)، وأن هذا يُشكّل تداخلاً لدى الناس!!

أي عذر منافق وقذر هذا الذي قدموه! ما معنى تداخل؟ ألا يحق للكاتب أن يكتب في أكثر من مجلة؟ خاصةً حين ترفض إحدى المجلات أو الجرائد مقالاتِه؟ ألا يحق له أن يبحث عن منبر آخر يعبر عن رأيه، وبالتالي ليتمكن من إعالة نفسه وأسرته؟ هل الغاية إذلال الكتاب الشرفاء بقطع أرزاقهم؟ هل السبب الحقيقي أن إدارة الجريدة الأساسية التي تكتب فيها كل أحد وتعرف أن آلاف القرّاء ينتظرون مقالاتها، انزعجت واتخذت هذا الإجراء بحقها.

والجريدة الأخرى بالكاد تنشر لها مقالين أو ثلاثةً في الشهر! كيف ستعيش في باريس إذا! إنها تنام في عيادة أختها؛ لأنها لا تملك إيجار أستوديو صغير، وقمة رفاهيتها هي أن تطلب القهوة أو البيرة في مقاهي الرصيف، ولطالما اشتهت أن تطلب وجبة طعام وكأس نبيذ لكنها لم تجرؤ على ذلك التبذير؛ كان الحد الأدنى من دخلِها من كتابتها يؤمّن مصروفها اليومي، فكيف ستؤمّنه الآن وقد انقطع مصدر رزقها؟

يا لألم الذل الحارق! ترى كيف ستتصرف؟ أتعبّر عن جام غضبها وتثور لكرامتها، أم ستنتظر عسى أن يكون الأمر سوء تفاهم وتنصلح الأمور وتعود إلى الكتابة؟

وطغى القهر والإحساس بالظلم على روحها، تذكرت كيف حصروها أو حاصروها بمواضيع تخص الأسرة، ولم تكن تميل إلى تلك المواضيع، ليس لأن مشكلات الأسرة العربية لا تعنيها، بل لأن جوهر كيانها الآن عبارة عن جمرة مشتعلة بالألم واللوعة، لا تستطيع أن تكتب سوى عن سوريا والسوريين إخوتها في المأساة.

ما حدث أن أذعنت لإرادة الجريدة وكتبت مواضيع مهمة جدًّا عن الأسرة، مثل: ظاهرة الاكتئاب عند الأطفال، ورهاب المدرسة،

وغياب البحث العلمي في عالمنا العربي، وتهديد الطفل بالانتحار.. عشرات المقالات التي كانت تلاقي نجاحًا كبيرًا وتُنشر في مواقع إلكترونية عديدة كتبتها عن الأسرة.

لكن الهوى الأكال في روحها هو سوريا، من وقت لآخر تكتب مقالاً عن الوجع السوري فيعتذرون عن نشره، حتى أن مدير التحرير قال لها صراحةً: لسنا معنيين بالشأن السوري. تمنت لو تصفعه وتسأله أين إنسانيتك، وتمنت لو تملك الجرأة لاتخاذ موقف تتوق إلى اتخاذه وهو الانسحاب من الكتابة في الجريدة؛ إذ أحست أنهم يستعبدونها حين يجبرونها على الكتابة في مواضيع خاصة بالأسرة.

لكنها أدركت وهي تقف أمام محل فيكتوريا سكريت في شارع الشانزليزيه أنها ستتنازل عن كرامتها، وتعجبت من هذا الشعور الغريب الذي انتابها! حيث ربطت عدم قدرتها على ترك المجلة بأنها بحاجة إلى المال الذي يؤمن لها طعامها وكسوتها لمدة شهر على الأكثر.

وبين الألبسة النسائية الفاخرة المخرمة، ومن الحرير الطبيعي مع أشكال من الدانتيل والإكسسوارات، استقر نظرُها على سروال صغير من الحرير يعطي ضوءًا خافتًا أحمرَ متقطعًا! عجبت لهذا الاختراع، وهل تصبح العانة أكثر إثارةً حين تلتمع بضوء أحمرَ متقطع، هل تنادي القضيب وتحفزه أكثر حين يلتمع السروال الشفاف الرقيق بالضوء الأحمر!

لماذا وجدت خيطًا خفيًّا بين فصلِها من الجريدة وبين هذا السروال؟ هل تشوّش تفكيرها إلى هذا الحد؟ أم أن أفكارها تكون أحيانًا أقرب إلى الهذيان؟ لكنها حين أمعنت النظر في واجهة المحل

الفخم لفيكتوريا سكريت أدركت أن المرأة سلعة، وكل الأزياء - وخاصةً الثياب الداخلية- هي لتهييج الثور الكامن بين فخذي الرجل، وثمة حمالة نهدين تلتصق فوق موقع حلمتيها نجمتان لامعتان أيضًا.

هي بدورها سلعتها الجريدة، رفضت أن تقبلها بكل إمكاناتها ومواهبها، رفضت أن تنشر لها مقالاً واحدًا عن سوريا النازفة والشعب السوري المُروع، حاصرتها بمواضيع الأسرة، وبالتأكيد رئيس التحرير يعرف حاجتها إلى المال لأنها تعيش في باريس، حيث الغلاء الفاحش، إنه مسخَها وحوَّلها إلى مجرد كاتبة عن شؤون الأسرة، كما مسخ مصمِّمو أزياء الثياب الداخلية النسائية الفاخرة المرأة إلى مجرد سروال يضيء بالنور الأحمر المتقطع وحمالة النهدين ذات النجمتين.

إنها تشترك مع تلك الواجهة الخلاعية للثياب الداخلية النسائية في تسليع المرأة، الذي من أكبر الأخطاء اعتباره تسليعًا لجسدها فقط، بل تسليع وابتزاز لفكرها، بحصرها ضمن إطار معين يتحكم به الرجل، يكون هو السيد، وإن رفضت طاعته يقطع مصدر رزقها ويتركها كمشرَّدي الشوارع.

لا تنكر أنها خافت واضطربت؛ فمن أين ستأتي بالمال ومقالاتها في الجريدة توقفت، لكن جانبًا من روحها كان يشعر بنشوة الكرامة: لتذهب مواضيع الأسرة إلى الجحيم، لتجوع وتتشرد وتُطرد من كل المقاهي لأنها لن تملك دفع ثمن فنجان قهوة، لا يهم، حقًا لا يهم.

ومن أعماق روحها وعت مأساتها، مأساتها الحقيقية أنها بعيدة عن وطنها الحبيب سوريا، مطرودة من لاذقيتها وبحرها الذي تعشقه والذي تحسه كاتمًا لأسرارها.

ماذا تفعل في باريس؟! تنتظر شهرًا تلو شهر ليجددوا لها بطاقة الإقامة؟ أي ذل هذا؟ لم تعد تريد البطاقة ولا الإقامة؛ ستعيش بكرامتها في سوريا من راتبها التقاعدي وراتب نقابة الأطباء، ومن المال الذي ترسله لها بعض المجلات التي تنشر فيها.

عاد ذهنها يتوقف عند كلمة «تداخل»، العذر الأقبح من الذنب الذي استخدمه رئيس التحرير الذي سجنها في مواضيع الأسرة بحجة أنه اضطر إلى فصلها لأنه اكتشف أنها تكتب في جريدة أخرى تصدر في لندن أيضًا؛ مما يسبب حالةً من التداخل لدى القارئ.

سخر خيالها من تلك الكلمة، وتخيَّل صورة رجل وامرأة يتضاجعان.. لكنها كتبت له مستشهدةً بأسماء عدة كتّاب يكتبون في جريدتين تَصدران في لندن، وذكرت له أسماء خمسة كتّاب يكتبون أسبوعيًّا في جرائد صادرة في لندن دون أن تحصل حالة الجماع.. - عفوًا- التداخل في ذهن القارئ، لكن رده كان مُقرفًا من نفاقه المهذب، مُذكِّرًا إياها بأن المجلة حرة في اختيار كتّابها، وأن الكاتب حرٌّ أن ينشر في المنبر الذي يراه مناسبًا.

بعد أيام من الغضب والقهر والإحساس المُبكر بالفقر؛ إذ تحولت نفسها إلى نفسية فقيرة تقف أمام واجهات الأطعمة اللذيذة والألبسة ولا تجرؤ على الشراء، بعد تلك الأيام كتبت مقالاً فضائحيًّا عن الفساد الثقافي، وكيف أن تلك المجلة تحديدًا التي سجنتها في إطار الأسرة تنشر ثلاثة مقالات أسبوعية لكاتب كي تدعمه ماديًّا، ويبدو أنه متورط في اختيار ثلاثة مواضيع كلَّ أسبوع فتأتي مقالاته غريبة، مكررة الفكرة ذاتها بأسلوب مُختلف.

يا للفساد الثقافي المستشري في العالم العربـــي! ذكرت في مقالها الفضائحي التافه الجاهل الذي تسميه الحمار، والذي ترأس تحرير أهم مجلة ثقافية في دبـــي، وكانت واسطته شاعرًا واسع الشهرة ومثقفًـــا ينتمي إلى نفس القرية الساحلية لرئيس التحرير.

وبدأت المجلة تتحول إلى عصابة؛ إذ بدأ رئيس التحريـــر ينشـــر رواياتٍ دوريةً تصدر كل شهر مع المجلة لمجموعة خاصة من أصدقائه الذين ينتفعون منه وينتفع منهم، وأصدر ثلاث روايات لأحد الكتّاب عديمي الموهبة، والتي بالكاد عامل المطبعة يقرأ له منها عدة صفحات.

كرّس رئيس التحرير الحمار شلةً من الكتّاب المغمورين من أبناء قريته ليكتبوا، حتى أنه لم يتورع بنشر عدة مقالات لكاتب متوفى من أجل أن تحصل زوجة الميت على المكافأة. ترى أيـــن كـــان مالـــك الجريدة الخليجي؟! ألم يكن ينتبه لما يجري من فساد ثقافي ومحسوبيات حوله، أم أن دوره محصور في استقبال الضيوف، وإقامـــة النـــدوات والمهرجانات، وتقديم أفخر أنواع التمور لزوّاره مع القهوة المرة الـــتي تُقدَّم في كؤوس صغيرة.

حين توقف عملها في الجريدة ككاتبة في صفحة أسرة، بـــدأت تنظر إلى واقعها نظرةً مُختلفة، فهي ستموت من الجوع لو بقيـــت في باريس؛ إذ لا مصدر دخلٍ لها، وما عاد بإمكانها أن تـــؤمّن معيشـــتها اليومية حتى لحين يحل موعد تجديد البطاقة، وستظل كلَّ مســـاء تجـــر السرير الذي يُطوَى من مطبخ عيادة أختها إلى غرفة انتظار المرضـــى، حيث تفرد مفاصله وتغرق في العتمة والكراسي السوداء تحـــيط بهـــا وتُشعرها بأنها في عزاء، كانت تُمازح نفسها وتروق لها تلك الفكـــرة المُسلية كثيرًا بأنها ممددة في قبر أو سرير والكراسي حولها هي للمعزّين.

تمعنت في هذه الصورة وشعرت أنها الحقيقة، فبعد زمن طال أم قصر سيكون هذا المشهد واقعًا.. ثمة من يبكيها، والأغلب سيتباكون، والكثيرون سيفرحون. ما الحل؟ ثمة حالة أشبه بالمطاط يزداد طوله كلما مددوه هو زمنها، أجل أيامها أشبه بالمطاط الذي لا معنى له، يمر الأسبوع الأول ثم الثاني ثم الشهر الأول ثم الشهر الثاني وبعده الشهر الثالث وقريبًا يبدأ الشهر الرابع، وهي كلَّ يوم تذوب، وتتلاشى وتصرف طاقات هائلة بين صبر ويأس وأمل أشبه بخيط عنكبوت ينقطع بنفخةٍ.

الآن، الحل يفرض نفسه، فلا مكان لها هنا في باريس، ولا دخل ثابتًا تعتمد عليه، وليس عليها سوى تجهيز حقيبتها والعودة إلى وطنها الحبيب، ولو أرادت ابنتها التي تسكن في لندن لقاءها فلتأتِ إلى بيروت.. لن تكون سلعةً في يد رئيس تحرير أي مجلة، ولن تكون سلعةً في واجهة محل الألبسة النسائية الفاخرة، فالأمر سيان، ستكون نفسَها، وستعود إلى سوريا الحبيبة الجريحة.

دُمى منتصف الليل

هذا ما كتبته نيابةً عن بطلة الرواية؛ لأنها شعرت بالخجل، وطلبت مني أن أكتب بلغة الأنا.

وحيدة مع وحشة الليل، يعاندني النوم، وعقلي مشوّش لا ينجدني بكتابة مقال أو قصة أو حتى فصل من الرواية المسكينة التي بذلها مزاجي أي إذلال، أحس روايتي كائنًا حيًّا يرجوني أن أخلقه، يحاول أن يُقنعني بأن حالتي المعنوية سوف تتحسن إذا كتبت.

يُذكرني كم مرة استملت عبارة (الكتابة مُخلصي)، لكنّ تبلُّد مشاعري يبلغ من الوقاحة أنني أسخر من الكتابة، لا أعرف لماذا تكون شهيتي للتحدث مع الأصدقاء في أوجها بعد منتصف الليل، أشعر برغبة جامحة أن أسمع صوتًا إنسانيًّا، أن أتحدث إلى أحد، الصمت -صمت القبور- كما أحسه يُدمر أعصابي؛ لا مفر من أتفه وسيلة لتبديد الوقت: الفيس بوك.

ما إن أفتح صفحتي حتى يقفز عدة رجال أصدقاء تجمعني بهم علاقة مجاملة أو علاقة سطحية، لتوّهم إلى صفحتي ليباشروا معي حديثًا، ربما كل واحد منهم يعتقد أنني أتحدث إليه وحدَه، ولا أستبعد أنهم يتحدثون مع عدة نساء، فضجر الليل واستحالة أن تحكي بالهاتف مع أحد يجعل حديث الفيس بوك هو المتنفس الوحيد،

أتحدث إليهم جملةً، وأحيانًا أخشى أن أكتب لأحدهم ما أنوي كتابته للآخر، أسميهم «دُمى منتصف الليل»، ولعلهم يسمونني ومثيلاتي «دُمى منتصف الليل» أيضًا.

حديث لا معنى له، نوع من غزل مُنافق أحسه بائتًا كالخبز اليابس والمُتعفن -لا أفهم ذلك الربط بين غزلهم وبين الخبز المتعفن-، يسألونني عن حياتي في باريس، يحلو لي أن ألهو وأن أجيب كل واحد منهم جوابًا مُختلفًا، فأحدهم أصف له ضجري ولهفتي للعودة إلى اللاذقية، وبعد بُرهة من ثانية أكتب لآخر بأن باريس بلد الحرية والجمال والفن، أحكي مع آخر أن وقتي ممتلئ، وأقول لآخر: إن الفراغ يبتلعني.

لا أشعر بأي تأنيب ضمير حين أكذب عليهم؛ ربما لأنني واثقة أنهم يسلكون السلوك نفسه مع نساء أخريات، وربما لأن الألم حين يبلغ درجةً عظمى فلا شيء يخففه سوى السخرية والعبث.

روحي مختنقة وعلى شفير الانهيار من الإحباط والتظاهر، فلِمَ لا أتظاهر وأتسلى بالدُّمى، رجالي الذين يتحولون إلى دُمى ناطقة، كما يحولونني بدورهم إلى دمية ناطقة.. أأسخر من الحياة بعدم احترامي لهؤلاء الأصدقاء، أم أسخر من نفسي؟ أم كلنا ضحايا حرب سورية قذرة مسختنا إلى دمى؟

أنتبه للعبارات السخيفة المُنمقة التي نتبادلها، مثل: (تسلمي لي.. اشتقت إليك كثيرًا..)، أحدهم طلب مني ذات مرة أن يرى جسدي عاريًا، وادّعى أنه أسير لأنوثتي. ضحكتُ بكل ما أملك من سخرية وحذفته فورًا من صفحتي، يبدو أنه معتاد على هذه العادة.

أكثر ما يحلو لي السخرية من العجائز، هؤلاء الـذين تجـاوزوا السبعين والمتصابين.. ذات مرةٍ انطويت من الضحك حين اقترح عليّ أحدهم وهو أحد دمى منتصف الليل أن نقضي يومين معًا! تعجبـتُ من بلاهة عرضه! «أيُّ تفكير أو استنتاج يجعله يعتقد أنني ممكـن أن أوافق على صحبة عجوز!».

أعيد له العبارة عدة مرات كي يسـمعها، ووجهـه مترهـل وكذلك عنقه، أما باقي أعضائه فلا داعي لإضاعة الوقت في وصف هَتُّكها وعجزِها، لكنني أردت ألن ألهو فقلت له: أين مثلاً يمكن أن نقضي يومين معًا؟ قال: في جنيف أو بروكسيل. وضعت راحـتي على فمي كي لا تنفلت مني ضحكة، ووجدتني أحس بإثارة كبيرة من هذره الكلامي، سألته بعبث: وماذا سـنفعل خـلال هـذين اليومين؟ قال: ننسى الدنيا ومشكلاتها، أنا وأنت وحـدنا؛ أنـت امرأة شهية، وأنا أشتاقك جدًّا، قلت له ساخرةً: وأنت أيضا رجلٌ شهيٌّ.

كنت أتقصّفُ ضحكًا طوال وقت الحديث، وفجأةً سألتُه: أين زوجتك؟ هل هي نائمة؟ تقصّدتُ أن أقحم زوجته في الحديث كمن أريد أن أخوزقه، لكنه أجابني ساخطًا: ما علاقة زوجـتي الآن؟ مـا المناسبة لتحكي عنها؟ قلت له: أردت أن أعرف ما المـبرر الـذي ستقدمه لها حين سنسافر يومين معًا؟ قال: لا تقلقي، عنـدي مئـة سبب لأبرر غيابـي يومين.

فكرت أن هذا العجوز المتصابـي المترهـل البخيـل لدرجـة مروعة -إذ إن كل مواعيدنا للقاء في المقاهي كانت بعد الثالثة ظهرًا؛ كي يضمن أنني تناولت طعام الغداء فلا يُحرج ويضطر إلى دعـوتي

للغداء- لا يسخو إلا على شهوته، على تلك الرجولة الميتة التي يعتقد أن بإمكانه إنعاشها بجهودي.

لا أعرف أي دافع خبيث وأية رغبة قوية بتحقيره جعلتني أقول له: أتعرفُ تذكرت الآن فيلمًا سينمائيًّا رائعًا حضرته منذ سنوات، الفيلم جريء بشكل خرافي، ويحكي عن جدة في الستين من عمرها مسؤولة عن إعالة أحفادها بعد أن مات والدَيْهما في الحرب، وكانت لا تملك أية مهارة أو مهنة، إلى أن وجدتْ أخيرًا مهنةً غريبة وهي حلب أعضاء الرجال.

صرخ: ماذا، ماذا تقولين؟! قلت له مهلاً لأكمل لك الفيلم: كانت الجدة أشبه بموظفة، بل في الواقع كانت وظيفتها أن تقف وراء حاجزٍ مثقوب، حيث يُدخل الرجل عضوَه وتقوم أصابع الجدة بمداعبته وإثارته حتى يقذف.

الجدة تعول أسرةً من عملها هذا، وهؤلاء الرجال لا تعرفهم ولا تراهم ولا يعنون لها شيئًا، سوى أنها ترى تلك الزائدة الرخوة يدخلونها من الثقب ليرتاحوا من وجع الغريزة.

كنت أعرف أنني أتقصّد إهانته بطريقةٍ ما، وكنت واثقةً أنني حققت غايتي.

أنا.. أيها العجوز المقرف البخيل! صارت لقاءات ثقافية وسياسية بيننا؛ حيث نناقش قضايا سوريا الجريحة، تبخل حتى بكوب بيرة أو كأس نبيذ، وتُسارع إلى طلب القهوة لنا نحن الاثنين.. لم أكن أعلّق، كنت أتركك حتى تحين اللحظة المناسبة؛ كي تدخل التاريخ يا عزيزي، كي يعرف الناس جميعًا أي مثقف مقرف من البخل أنت! لا تسخو إلا على تلك الثمرة المتعفنة بين ساقيك.

لماذا خجلت بطلة روايتي من ذكر تلك الحوادث وتسمية الرجال بالدمى؟ هل أرادت أن يكون ألمها على شعبها ووطنها طاهرًا نقيًّا غير مُتضمن تلك القذارات؟ فهي تعتبر أن اللوّ مع الرجال على الفيس بوك ليلاً عارًا.

أحترم رأي بطلة روايتي؛ فهي تشمئزّ من هذه المواقف وهذا الكلام، لكن بما أن ثمة حلفًا بيننا أن أكتب عنها لأنها فوضتني أن أكتب عنها، سمحتُ لنفسي أن يكون ولائي تامًّا للحقيقة وأن أكتب ما يحصل ليلاً.

حين يجافينا النوم ويذلنا الألم، كنت واثقةً أن زملائي وأصدقائي الرجال متألمون أيضًا ويجافيهم النوم، وأن لعبة الدمى تخفف من التوتر الليلي، حيث زعيق صوت الطائرات التي لا نعرف أين تُطلق صواريخها، وكم أحثت من دمار، وكم عدد الأطفال والكبار الذين يمكن انتشالهم من تحت الأنقاض.

أحيانًا كان يمتد هذا اللهو والغزل المضجر، وأحيانًا الفاحش حتى طلوع الفجر، بعدها كان النوم يرحمنا لنستيقظ في اليوم التالي، وكل كلام الليل يمحوه النهار ولا يبقى أي شيء عالق في الذاكرة.

***

استيقظتْ مذعورةً من كابوس، رفست الغطاء بقدمها وهي تتساءل بغيظ: أمَا من نهاية لهذه الكوابيس؟! نظرت في ساعتها وشاهدت العقارب تشير إلى الثالثة والنصف فجرًا، كانت تحس باختناق فظيع لا تستطيع تحمُّله منفردةً، وبما أنها تدرك أن لا معينَ

لها؛ لذا أسرعت إلى علبة الدواء المضادة للقلق والعلبة المرافقة لها دومًا الدواء المنوم، وابتلعت حبتين من كل دواء.

كم هو مهين ومؤلم ألا يكون لدى الإنسان معين سوى الدواء! وبانتظار الدقائق التي سيبدأ فيها الدواءان مفعولهما شغلت نفسها قليلاً باللاب توب، فتحت صفحة الفيس بوك، وحانت منها فجأةً التفاتة إلى ساعتها، يا للكارثة! فالساعة الثامنة والنصف صباحًا وليست الثالثة والنصف.

وقد تورطت وتناولت الأدوية المنومة والمضادة للقلق، وتعرف سلفًا أية معاناة رهيبة ستكون بانتظارها طوال اليوم، فقد علمتها تجاربها خلال الحرب السورية -حين اختارت الهروب من الواقع بالنوم- أن تلك الأدوية تؤثر فقط إن كان الجسم يحتاج حقًّا إلى النوم، أما جسدها الذي شبع نومًا ليلةَ البارحة لأكثر من ثماني ساعات، فلن تؤثر به الأدوية المنومة والمهدئة مهما كان عيارها؛ لذا عليها أن تعاني طوال اليوم من حالة من الارتخاء والنزق والميل إلى الانتحار وإنهاء هذا الواقع القاسي.

أخذت تنهال باللعنات على نفسها، فأي خطأ فظيع أن تقرأ الساعة خطأً، وبدل أن تقرأ العقارب تشير إلى الثامنة والنصف، قرأتها تشير إلى الثالثة والنصف، في تلك اللحظة وهي تمرر الصفحة الرئيسية للفيس بوك صعقتها صورة طفلة آية من آيات الجمال: شعر أشقر ناعم، عينان خضراوان واسعتان برموش كثيفة، وجنتان ورديتان تنضحان بالصحة والنضارة، وشفتان ممتلئتان ترسمان شبه ابتسامة تنافس ابتسامة الجوكوندا غموضًا، العشرات ترحموا على روح الطفلة التي قتلتها الصواريخ مع شلة من صديقاتها.

لم تستطع ولو مرةً واحدة أن تُكتب تحت اسم شهيد، أو مقتول بالصواريخ: الرحمة لروحه! لأن الرحمة من وجهة نظرها يجب أن تكون قبل طلوع الروح وقبل الموت. كيف تموت تلك الطفلة! تتحول إلى مجرد صورة يترحمون عليها وعلى زميلاتها!

عادت إلى سريرها في غرفة الانتظار في عيادة أختها، أحست أن الكراسي السوداء غصة بالمعزّين، تأملت تأثير الدواء برجاء غريق يبحث عن قشة لإنقاذه، عرفت من جسدها المُتخشب أن لا أمل بأن تنام، وأطبقت جفنيها على صورة الطفلة رائعة الجمال الميتة، وفهمت ابتسامتها، ابتسامة احتقار وسخرية من عالم الجنون والإجرام، بل ابتسامة سعادة؛ كونها غادرت هذا العالم الوحشي الإجرام.

اتجهت حافيةً إلى المطبخ، وانزلقت لأن الأرض خشبية وملتمعة بالمنظفات، ورغم أن سقوطها كان بلا ألم إلا أنها انفجرت بصراخ متفجّع على الطفلة، وتمنَّت أن تموت وترافق تلك الصغيرة إلى العالم الآخر الذي يحكمه الله -كما يفترض البشر-، أين هي الآن تلك الطفلة؟ ماذا أحست وجسدها البض يُثقَب بالرصاص؟ ما آخر صورة عبرَتْ خيالها: وجه أمها، أم صديقاتها اللاتي سبقنها إلى الموت؟ لأنها -على الأغلب- قد تكون تفرجت كيف يموت الأطفال، ربما تبادلت ابتسامة مع صديقة لها موتها طازج في اللحظة التي حل بها دورها في القتل.

كان لطعم القهوة مرارة أكثر من العادة، والتهمت بضع لقم من الجبن الفرنسي بقرف، قرف من الحياة ومن تلك اليوميات التي تتعاقب متشابهةً إلى حد التطابق، كل يوم إجرام وقتل.. كل يوم إجرام وقتل ومعاناة!

وهي كالبلهاء تسرح في الشارع نفسه (لو درو رولا) قاصدةً المقهى ذاته دون أن تغير الكنزة التي تنام بها، ودون أن تلبس حمالة النهدين، وغالبًا دون أن تمشط شعرها، تضع اللاب توب الثقيل في محفظة تحملها على ظهرها وتجلس في المقهى ذاته (كافيه راي)، وتتظاهر أنها تكتب رواية، بينما كل شيء يشتتها: حركة الناس، من يقود دراجة، الباصات الأنيقة التي تتسلى بقراءة أرقامها، النادل الذي يضع على وركه حزامًا يضم كدسة من العملات النقدية من فئة يورو وأصغر.

يُحضر لها القهوة بـ 2 يورو ونصف اليورو، تفكر أن ثمن فنجان قهوة في باريس يعادل 1700 ليرة سورية، تشعر أن الشاشة البيضاء تحدق بها، وليست هي من يحدق في الشاشة، إنها واثقة ومؤمنة بأن الشاشة هي سيدة الموقف، وهي من يأمرها بالكتابة أو يمنعها عنها حسب رغبة الشاشة.

***

غواية الموت

حين تعي بعمق وحدتها وحزنها، وتضطر إلى إخفائهما عن المقرّبين، وتجلس وحيدةً في عيادة أختها الأشبه بالقفص؛ حيث لا يدخلها نور الشمس إن لم تفتح النوافذ، حين يكون كل من حولها مشغولاً بمشاريعه واهتماماته الخاصة، وما من معين لها سوى بضع كلمات تكتبها لها ابنتها بأنها مع خطيبها الإيطالي، فترد على كلمات ابنتها بأنها بحالة جيدة. وتهم بالخروج من المنزل، يأتيها الصوت الحبيب: أوكي مامي باي.

الكنزة ذاتها فستقية اللون، ذات الياقة العالية تلبسها منذ دهر، مذ جاءت إلى بلد الضياع فرنسا، تقرفص باحثةً عن دواء الآتاراكس، وهو مضاد تحسس لكن حين يؤخذ بجرعة عالية فله تأثير منوم، تفكر هل يكمن فعل هذا الدواء في تلك الحبوب البالغة الصغر!

تخطر ببالها فكرة وهي تولد حبة تلو الأخرى من القشرة البلاستيكية بأن ابنتها مطمئنة البال الآن وتعتقد أنها خارج المنزل.

تبتلع عدة حبوب وتأكل عدة حبات من البلح اللذيذ الذي تشتريه من سوق العرب، حيث يفرشون كل أنواع الفاكهة والخضار على بسطات، أحدهم تعرفت به قال إنه ليبي، فردت بآلية ومرح:

الله لا يرحم عظمة في القذافي؛ فرفض أن يبيعها وقال إنه يُحب القذافي، تأملته بشفقة، الفقر يرشح حتى من قسمات وجهه وشعره الملبّد ومع ذلك هو يحب القذافي! إلى هذا الحد آذته حين لعنت القذافي؟!

أختها وابنتاها وزوجها في لندن، ذهبوا جميعًا برفقة عائلة صديقة إلى لندن ليقضوا العطلة المدرسية.. وحيدة ورثّة الهيئة، وجدت نفسها تفكر في الموت، هل ثمة علاقة بين الموت والوحدة؟ لعله صديق مُخلص لا يريد أن يتركها وحيدةً.

طغت صورة مايكل جاكسون على خيالها، كانت تحبه ومعجبة برقصه وأغانيه، وعرفت أنه كان ينام بعد أن يأتي طبيب التخدير ليعطيه الجرعة المنومة من دواء البروبوفول المنوم، ثم يعود الطبيب صباحًا ليوقظه ويعطيه دواءً يبطل مفعول البروبوفول؛ مات مايكل جاكسون بجرعة زائدة من الدواء.. لماذا تتوقع لنفسها هذا المصير؟ لم تعد الأدوية تؤثر بها كالسابق.

أحيانًا تحس برهاب من الخروج من المنزل (عيادة أختها) وتُبقي النوافذ مُغلقةً كي لا تشعر بأي مظهر من مظاهر الحياة حتى الضوء، تهيم في العيادة، تفتح البراد فقير المحتويات، تشتاق إلى الطبخ، في اللاذقية كانت تطبخ، أما هنا في صقيع غربتها فتكتفي بالأطعمة الجاهزة وتعتمد على الأجبان، تأكل كحيوان، وحدَه البلح يُشعرها باللذة.

حالة من الشلل، أفق مسدود، تأمل من الدواء أن يُغرقها في النوم أطول مدة ممكنة، أن تستيقظ لتجد أن صباحًا جديدًا بائسًا قد بدأ، حاولت أن تُجبر نفسها على فتح النافذة؛ لتعرف على الأقل الحالة الجوية، لترى نور الشمس.

لكنها لم تستطع، تيبّست يدها على مقبض النافذة وعادت أدراجها إلى الدواء ذاته، ابتلعت حبتين زيادةً كي تضمن نومًا حتى الصباح، لم تحس بارتخاء، يبدو لأنها تُكثر من شرب القهوة صباحًا.

استنجدت بوجه ابنتها وتخيلت أنها تبوح لها بأسرار روحها وبأنها تفكر كثيرًا بالانتحار، وتعرف أنها لن تنتحر لأنها أم، لكن غواية الانتحار تلاحقها دومًا، حاولت أن تتخيل ملامح وجه ابنتها وهي تخبرها برغبتها في الانتحار، يا إلهي، أي حزن سأسببه لها!

ذهبت إلى غرفة المُعزّين -كما تُسمي غرفة انتظار المرضى ذات الكراسي السوداء- وتمددت في السرير الضيق على ظهرها شاعرةً بأنها تتحرر من وزنها، كم صارت تحب هذه الحالة أن تتمدد على السرير وتتخيل الكراسي غاصّةً بالمعزين، ثم تستدير جانبًا متخذةً وضعية الجنين وتنتظر رحمة النوم.

تغرق في النوم أخيرًا عارفةً أن الكوابيس سوف توقظها وهي بحالة هلع، والظلام الدامس يُغلفها، تبقى بحالة لهاث للحظات حتى تعي أن ما يرعبها هو مجرد حلم.

تمشي حافيةً إلى الغرفة المجاورة -أي غرفة الطبيب- وتجلس إلى مكتب أختها وتتأمل الحلقة الصغيرة الزرقاء للكميوتر وهو يُقلع، ينكمش قلبها عارفةً أن صورًا لشهداء شبان بانتظارها، وعشرات التعليقات تحت صورة الشهيد «الله يرحمه».

لكنها هذا الصباح طالعت وجهًا طفوليًّا لشابة باهرة الجمال: عيناها خضراوان واسعتان، بشرتها وردية، وشعرها أشقر ناعم، أما ابتسامتها فمُحيّرة حقًّا بين السخرية والاحتقار والفرح أيضًا؛ لأنها هربت من عالم الوحوش، ولأنها سعيدة بأن عدة رصاصات اخترقت

جسدها البضّ وقتلتها، لماذا تعيش في عالم الوحوش؟ قد يكون هنالك عالم أكثر رحمةً، وحتى لو ابتلعها الفراغ؛ فهذا أفضل من العيش في عالم البشر.

قامت تحضر قهوتها وتفطر الجبنة البيضاء ذاتها، ونظرها مثبّت على الطفلة الميتة، لا تصدق أن طفلة بتلك النضارة هي جثة الآن، ومعها مجموعة من الأطفال قصفتهم الصواريخ، وهي جالسة كحيوان تأكل لقمة بعد لقمة ولم تشعر بانسداد شهيّتها، والطفلة تشتهي أن تأكل معها -هكذا أحست.

ثمة صور لشهيد بطل لا يتجاوز عمره الخمسة عشر عامًا، لم تنبت لحيته ولا شاربه بعد.. ألا تخجل من الأكل! لكنها تشعر أن الأكل يُهينها أكثر من الامتناع عنه.

تحس أنها تدجنت كحيوان، كالأرنب ذي الشهرين في بيت أخيها يعيش في قفص ويأكل طوال الوقت وحيدًا وحيدًا، يا لإجرام الإنسان! ما ذنب هذا الحيوان الصغير الذي يحتاج حنان أمه كي يوضع في قفص طوال الوقت فلا يجد أمامه مُتنفسًا سوى الأكل.

حتى الثالثة فجرًا حين تدخل المطبخ وتشعل النور تجده يأكل غير مبالٍ بالظلام، كانت تفكر بأنه روح، ما أدرانا كيف يتألم هذا الأرنب الصغير المسجون في قفص، والذي أسمته «السجين السياسي»! أي ضجر يحس به، وأي افتقاد لأمه! ترى هل يعرف بغريزته أن هنالك أمًّا تحبه وتحنو عليه؟

كانت تتأمله في القفص مشتتًا كأنه يبحث عن شيء، ثم فجأةً يكتشف صنبور الماء ليشرب، صنبورًا أشبه بآلة الرضاعة، يشرب

حتى يرتوي ثم يعتلي مصطبةً معدنية صغيرة مـــادًّا يديـــه وقدميـــه باسترخاء إلى الأمام.

في البداية كان يجفل منها حين تحاول لمسه، يجفل مذعورًا حتى من القرقعة التي تصدرها، لكنه فيما بعـــد صـــار يـــأنس لمســـاتِها ومداعبات الحنان التي تداعب فروته بها.

لكن، ما علاقة تذكُّرِها لتفاصيل الأرنب السجين بإحساســـها بتلك الصورة للطفلة المقتولة بشظايا الصواريخ، لعل الأكل نوع من التعذيب؛ فهي تأكل كي يطول عمر العذاب، وهي على ثقـــة الآن بأن الأرنب مُعذب؛ لذلك يأكل طوال الوقت لأنه لا يعرف مـــاذا يفعل، محروم من أمه ومن أخ أو صديق، محروم من بستان وحشائش، ولا يملك سوى هذا القفص ذي القضبان الحديدية.

هكذا تبدأ أيامها بتأمل صور الموتى، لكنها اليوم لم تعد قـــادرةً على التوازن لدرجة شعرت أن مشيتها مترنحة، فابتلعت الدواء المنوم وأسرعت تتدثر بالغطاء وابتسامة الطفلة الساخرة السعيدة تلاحقها، وكذلك نظرة الصفاء في عينيها النجلاوين الخضراوين. عضت علـــى اللحاف ونادت الموت: تعالَ، تعالَ، تعالَ.. مـــاذا تنتظـــر، خـــذني إليها.. لكن الموت أجابها ببرود: «لم تأتِ ساعتك بعدُ».

***

تشرين الثاني

لا يمكنها أن تبوح لأحد، إنها تنام السابعة أو الثامنة مساءً، تُريد أن تقصف عمر يومها، يكفي أن تتألم من الصباح وحتى السابعة مساءً، يكفي أن تشعر أنها بلا وطن، وأن سوريا الحبيبة بدأت تبتعد وتصبح حين تتذكرها مسربلةً بالضباب، لهذا الشهر خصوصيته المأساوية.

ستحكي كل شيء كل شيء، بل إنها تتساءل بجدية وهي تجلس أمام الشاشة الثانية فجرًا بعد أن نامت ساعات: ترى، لِمَ لا يحكي الناس كل شيء طالما أنهم سيموتون؟! فكرت أن الموت يُنجي الإنسان من المساءلة والعتاب.

كم تكره تشرين الثاني! حيث انحرفت حياتها كليًّا، وتحدَّد مصيرها.. كانت في الخامسة والعشرين وهو يزيدها بعامين، هل أحبَّته؟ لا تعرف تمامًا، كان دائمًا بجانبها يعبدها ويبكي من صدّها له أحيانًا، «يااااه».. كم تؤثر دموع الرجال! لكنها كانت مشوشةً، لا تحس بتلك الطمأنينة والسعادة العميقة برفقته.

والآن بعد مرور ثلاثين عامًا مذ عرفته تُدرك أنه كان خبيثًا، وكان يعرف أنه لو تركها للحظة تخلو إلى نفسها وتبتعد عنه لأيامٍ لتفكر بعلاقتهما فستهرب منه؛ لذا عرف أنه يجب أن يوقعها في مصيدته.

أجل، اصطادها وهو يتربص بها، ونجح في إقناعها أنه يعبدها وغايته إسعادها، ولا يوجد رجل في العالم قادر أن يحبها كما يحبها هو.

رقّت، ودغدغت كلماته مشاعرها، ثم بدأت تتعود على وجوده في حياتها، لكن كم من الليالي قضتها مبحلقةً في الظلام قلقةً، ونذير خطرٍ ينبهها لخطر ارتباطها به، كانت تشعر أنه متسلطٌ رغم محاولاته إخفاء تسلُّطه، قاسٍ في أحكامه على الآخرين، وساديٌّ؛ إذ يتلذذ بتحطيمهم وإيذائهم.

كان يسكن مع زميل له في شقة متواضعة في باب توما، يتقاسمان إيجارها، وكانا مُجندين في سرايا الدفاع التي يقودها أخو الرئيس حافظ الأسد (رفعت الأسد).

في تلك الفترة من منتصف الثمانينيات كانت تتابع دراستها العليا في الآداب في دمشق، وكان هو -جارها في اللاذقية- يخدم في سرايا الدفاع، عرّفها إلى أصدقائه وكلهم من المثقفين الشيوعيين، وبعضهم كان مُنتسبًا إلى رابطة العمل الشيوعي، وجدت في هؤلاء الشباب شجاعةً أخافتها وجعلتها تفكر في الابتعاد عنهم.

لكنها أحبتهم؛ فهم حقيقيون ومثقفون وشجعان ويجرؤون أن ينتقدوا رؤوس النظام الفاسد، وكانوا عشاقًا أيضًا ويمارسون الحب بكل حرية ودون ذرة من تأنيب الضمير، ولم تكن حبيباتهن يشعرن أنهن يُقدّمن شرفهن الرفيع للحبيب، بل كنّ يشعرن تمامًا أنهن يأخذن متعةً وحبًّا ونشوةً مثل الحبيب تمامًا.

لكنها كانت مسكونة بفوبيا العذرية، تُقدّسها وتعتبرها علامة الشرف الوحيدة لفتاة راقية، كانت تشعر أن أعظم هدية تقدّمها

حبيبة لحبيبها هي يوم الدخلة؛ حيث تنزف كما لو أنها تقول له: أترى، لقد حافظت على شرفي لأجلك، ولا يهمّ كم من العلاقات الجنسية خاض هو؛ فهذا لا يعيب الرجل، بل على العكس يزيده إغراءً وجاذبيةً؛ لكونه يملك خبرةً، أما الرجل -العُذريّ- فيُنظر إليه باستخفاف وسخرية.

تأثرت بتلك الشلة المتحررة الفقيرة والمثقفة والجامعية، وصارت تتقرَّب منهم بحذر، إلى أن اندمجت معهن تمامًا، وقد أدركت المعنى الحقيقي للحرية، كان العشاق ينامون على فُرُشات متلاصقة على الأرض، والمطبخ مهملهل، وكذلك الحمام، وكانوا يأكلون متحلّقين حول طبق كبير من القش يفرشون عليه أوراق الجرائد.

ويبدو أنهم اتفقوا على أن يكون لكل عاشق دورًا في استعمال الشقة؛ إذ يُخلي له أصدقاؤه الشقة ليمارس الجنس مع حبيبته.

كانت مصممةً ألا تهبُه عذريتها إلا يوم الزواج، هذا إذا قررت أن تتزوجه؛ لأن ساديّته وتسلُّطه كانا يُقلقانها.

وذات يوم زارته في شقة باب توما، وكانت غالبًا ما تزورهم تشرب معهم الشاي ويتحدثون، وفجأةً رأت مشهدًا لن تنساه في حياتها: كان زميله -وهو شاب رقيق- يبكي بقهر وصوت مرتفع، وحبيبها عابس وصامت لا يواسيه بكلمة! سألت: ما القصة؟ فلم يردّ عليها أحد، وأعادت السؤال فقال حبيبها ببرود: مجرد خلاف عاديّ بين أصدقاء.

أهذا خلافٌ عاديٌّ أن ترى صديقًا محطمًا وصديقه الآخر مستمتعًا بانهياره ومنتشيًا بساديّته!

كيف مرَّرَت تلك الحادثة و لم تفهم أبعادها المُخيفة، أن هـذا الشاب الذي يعشقها ولا يكفّ عن التعبير عن ولهه بها هو إنسان قاسٍ وساديٌّ! لم تكن تملك الخبرة الحياتية الكافية لتحلل بعمق ما يجري حولها، هي ذاتها كانت تجهل ذاتها، لا تعرف إلى أي حدٍّ يمكنها أن تعيش حريتها.

لكن ظل موضوع العذرية خطًّا أحمرَ بالنسبة لها، ولا يُمكن أن تفرط به أبدًا، إلى أن كان يومٌ مُغبرٌّ في تشرين الثاني، كان الغبار كوشاحٍ يغلف الأبنية ويغطي النوافذ وحتى البشر، اقترح عليها أن يذهبا إلى الشقة في باب توما فهي خالية.

خافت لكنها دارت خوفها، وفكرت أنها لن تسمح لمخلوق أن يفقدها عذريتها، جلسا قرب المدفأة الكهربائية الصغيرة وشربا النبيذ، لفحتها حرارة النار والنبيذ والشهوة، وتقبّلت قبلاتِه باستمتاع، كان بارعًا في الغزل وتحديدًا في القُبل، وحين أراد أن يُقبّل حلمتَيْها رفضت بشدة وهربت محتميةً بزاوية الغرفة، أبدى اعتذاره وقال لها: إن الحب المتفجر في قلبه هو ما جعله ينزلق ويخطئ في هذا الطلب، واقترب منها ورجاها أن تسامحه، ومسح على شعرها برقة مسحةً لا تحمل سوى حنان وشيء من شفقة.

غريب أمرُها! كما لو أن اعتذاره أهانها، توقعت أن يُلحّ وأن يُصرّ على فك أزرار قميصها لتحرير نهدين بديعين، كانت تريد أن يرى ما تملك من نهدين منتصبين وحلمتين ورديّتين لم يُقبّلهما أحد.

سألها: هل تريدين الخروج؟ هل تخافين مني؟ تعالَيْ نترك الشقة ونذهب إلى كافتيريا نشرب الشاي، لكنها قالت: لا. وربما لو لم تقل لا ووافقت على الخروج من الشقة لما انحرف مصيرها.. تبادلا نظرة

شهوة فاضحة، سألها: هل تخافين مني؟ قالت: لا أعرف، لكنني لا أستطيع أن أعيش كهؤلاء الفتيات المضحيات بعذريتهن، ماذا لو لم يتزوجهن هؤلاء الشبان؟ ضحك ضحكةً طويلةً وقال: إنهن يؤمنّ بالمساواة مع الرجل، ولو فشلت العلاقة تتزوج غيره.

اقترب منها بحجة أنه سيصب لها المزيد من النبيذ، وتبادلا قبلاً عميقة لاهثة جعلت جسديهما كجمرتين مشتعلتين من الشهوة.. لأول مرة تكتشف عمق وقوة الشهوة واستحالة مقاومتها، هي نفسها مَن فكت أزرار قميصها لتكتمل نشوتها وتُريه قبيتي الفضة.. بنعومةٍ آسرةٍ صار يلحس الحلمتين ويعجن النهدين بأصابعه، طاش صوابها من النشوة وشعرت برطوبة كثيفة في فرجها.

كانت في قلب الورطة وأنَّبها عقلها -أو عقلهم المزروع في عقلها- بأنه يجب أن توقف فورًا هذا الجنون، لكنها عجزت، خاصةً بعد أن تعرَّى، رأت لأول مرة جسد رجلٍ جميلاً عاريًا وعضوَه منتصب بشدة، فتنها، كان يشبه التماثيل الرومانية، أضر غطاءً صوفيًّا قائلاً: أشعر أنك بردانة.. وكان الغطاء حجةً ليجردها من ملابسها، ولامس وهو يشهق شوة شعر عانتها وداعبها وقبّلها.

ولم يكن يكفّ عن الكلام عن جمالها وتناسُق جسدها واشتهائه لها، قالت برجاء: أرجوك، أريد أن أبقى عذراء، قال: أعدُك. لكن حين لامسَ عضوُه المنتصب بظرَها وداعبَهُ شهقت من اللذة، أمسكت عضوه بسعادة وهي تعي أية جريمة هي الكبت الجنسي! بدا لها الجنس غاية الحياة وفرحها، ولا يحمل ذرة من دنس كما يصورونه لها دومًا.

وبين شفريها الصغيرين ضغط عضوه قليلاً في فتحة المهبل، فشعرت بسائل حار يتدفق منها، أجفلت، كانت واعيةً تمامًا لرطوبة

اللذة في فرجها، أما الآن فثمة سائل تدفّق إثر هذا الضغط، أبعدته عنها بقسوة ورأت الدم يسيل من فرجها؛ جُنّت، طاش صوابها، وانهالت عليه بالشتائم والسباب واتهمته أنه استدرجها ليفقدها عذريتها ويتحكم بها.

اضطرب، إذ لم يكن بنيته أبدًا الاعتداء على عذريتها، وبكى متألّمًا ونادمًا ورجاها أن تسامحه، ولم تبالِ أن تكيل له الشتائم: يا كلب، يا حقير.. كان يتقبل كل كلامها، وعرض عليها الزواج فورًا، قال لها: تعالي معي سنتزوج حالاً. لكنها لا تريده، لا تريده؛ شعور في أعماقها يرفضه ولا يرتاح له.

صرخت: الآن، الآن سوف أُجري عملية إعادة العذرية، هل تفهم؟ الآن. أجبرتْه أن يصطحبها لدى طبيبِ نسائيةٍ مشهور في شارع أبو رمانة، انتظرت دورها ودموعها لا تتوقف عن الانهمار، وحين فحصها الطبيب وقسمات وجهه تنضح بالاحتقار، قال: فقدّت عذريتك، وأنا لا أُجري هذه العمليات، ثم إن هذه العمليات تُجرى قبل يومين أو يوم من ليلة الدخلة، حيث توضع مجرد قطبة ويحصل النزف بعد الإيلاج.

خرجا من العيادة والغبار أصبح أشبه بالطين لزجًا ودبقًا، كانت لا تزال مجنونةً من الخزي ومُروعة؛ كونها فقدت عذريتها، رجاها أن تهدأ وسألها: لِمَ العملية ونحن سنتزوج؟! صرخت: اخرس، أريد استعادة عذريتي. وكما لو أن عقلها عُطب، كما لو أنها فقدت وخسرت توازن شخصيتها وجوهر كيانها بفقدانها العذرية.

أصرت على العملية، وقصدَا طبيبًا نسائيًّا تذكرت أنه مشهور بإجراء هذه العمليات، فحصها وهالها أنه أسند جبينه على بطانة

فخذها متلذذًا، فكرت بأنها لم تعد مُحترمةً، وأن الطبيب نفسه ينتهك جسدها.

طلب مبلغ ستة آلاف ليرة وأعطاها موعدًا عصر اليوم التالي.. عليهما أن يؤمّنا المبلغ؛ فهو كبير في تلك الحقبة من الثمانينيات، كانت تلبس خاتمًا ذهبيًّا وسلسلة عنق ذهبية، رمتهما أمامه وقالت باحتقار: خذهما وبعهما.

كان مرتاعًا، قبل ساعة فقط كانت عاشقة متيمة، وهي من أرادت أن تُكمل العملية الجنسية، و لم يكن بنيته أبدًا أن يُخيّب أملها ويفقدها عذريتها، لكن لم يتوقع أن تلك الضغطة الخفيفة من رأس عضوه سوف تفقدها عذريتها.

لم يغفُ أي منهما تلك الليلة التي بدت أبدية، و لم تسأله من أين أمّن المبلغ، وقد أعاد إليها السلسلة الذهبية والخاتم.

دخلت عيادة الطبيب الذي أمرها أن تخلع سروالها وتسند ساقيها على رافعتين لسرير الفحص النسائي، فكرت هكذا تُصلب النساء، كانت ممرضة حمراء الشعر متصابية تساعده وتقول لها بصوت ميت مصطنع: لا تخافي حبيبتي. فتسألها: هل سأستعيد عذريتي كاملةً، فترد الممرضة: بالتأكيد يا حبيبتي. أحست بوخزات الإبر وملمس الخيط الخشن على جلدها.

قبض الطبيب المبلغ، وخرجَا من العيادة، كان صامتًا، وبصوت مختنق، وبعد عدة محاولات استطاع أن يقول لها: الحمد لله على سلامتك. فجأةً تدفقت رقة لا نهائية من روحها اتجاهه، وهالها كيف تحمَّل سيل شتائمها، وكيف كان شهمًا وعرض عليها الزواج فورًا، وكانت متأكدةً أنه لم يقصد أن يمزق بكارتها، لكن هذا ما حصل.

بدأت تبكي، فأحاطها بذراعيه وقال لها: أي شيء يرضيكِ أنا جاهز له، لن أقربك ثانيةً والله، ولا أطلب سوى أن تسامحيني. كان رأسها مستندًا على صدره، تحس بأمان وهي تتنشق رائحته، حلت لحظة صمت ثقيلة بينهما اخترقتها بعبارة: ابقَ بجانبي لا تتركني. قال لها: لن أتركك بعمري مهما احتقرتِني. قالت له: أنا لا أحتقرك، أنا كنت فاقدةً لرشدي وعقلي البارحة.

كم فرح أنها استعادت هدوءها، دعاها لتناول الغداء في نادي الضباط، قبلت، قدَّم لها هديةً جميلةً عبارة عن أرنبين أبيضين متلاحمين. ابتسما. كانا ضحيةً، كلاهما ضحية عقبية اجتماعية متعفنة تعطي كل تلك القدسية للعذرية وتربطها حصرًا بالشرف، كاشفة عن طريق خفي لممارسة الجنس من الشرج حفاظًا على العذرية، وفاتحةً الباب على مصراعيه للأطباء المُختصين بإعادة العذرية.

***

لا تعرف لِمَ تنكِئ هذه الذكريات بعد ثلاثين عامًا.. هو هاجر إلى أميركا بعد زواجهما الفاشل الذي استمر أشهرًا وأثمر عن روح روحها ابنتها الوحيدة، وهي تركت نفسها لأمواج محيط الحياة تتقاذفها، كما لو كانت قارورةً في قلبها رسالة، وتلك الرسالة هي الكتابة.

وعت بشكل غامض أنها تهوى الكتابة، وأنها خُلقت لتكون كاتبةً، لكن وعيها كان خامًا وغير متبلورٍ، ولم تتفجر موهبة الكتابة لديها إلا حين بدأ عراكها مع المحكمة الروحية المسيحية التي حكمتها بالهجر لمدة سبع سنوات كي تحصل على الطلاق.

أثمرت تلك السنوات بتخمير موهبة الكتابة في روحها، وكتبت روايتها الأولى (يوميات مطلقة) في يوم واحد، الكتابة مُخلّص، والكتابة وهبتها أجنحة الحرية، كانت تكتب كمن ينهل من بحر، في أي وقت وأي مكان، هوى ما يُوقظها من منتصف الليل لتجلس إلى الكتابة، أصبح البحر أعز أصدقائها؛ لأنها كتبت معظم قصصها القصيرة قربه ونظرها يسرح في الأزرق اللامتناهي، وهي تردد عبارة نجيب محفوظ الساحرة (ومن الأزرق ابتدأ البحر).

وحين حصلت على جائزة أبي القاسم الشابي في تونس عام (2002م) عن مجموعتها القصصية جُنّت من الفرح، كانت تلك الجائزة تعني اعترافًا بها وتدشينها في عالم الكتابة، ترى لماذا تستحضر تلك الذكريات بعد أكثر من ربع قرن؟.. لأنها تعاني من فراغ موحش كبير تخشاه كوحش يسكن روحها، لن تجد أدق من هذا التعبير؛ فالذعر الهائل يتحول في النفس إلى وحش، تحس أنها تريد إرضاء هذا الوحش ولا تجرؤ على ترويضه؛ إنه أقوى منها، وشل قواها منذ بداية الثورة السورية، وأصبحت وسيلتها الحيدة للهروب منه هي النوم، بمساعدة الأدوية المنومة، لكنه كان يقفز في أحلامها ويوقظها لاهثة مقاومة كوابيس مرعبة.

الآن وهي في منتصف العمر بلا وطن، تتسكّع في شوارع باريس ومقاهيها، وتحس بغصة ألم كلما دفعت فاتورة، وتنبش في ذكريات قريبة وبعيدة وتعيد إحياءها والإحساس بها مذهولةً كيف أن إحساسها بتلك الحوادث قد اختلف تمامًا عما شعرت به من قبل.

لا همة لها على القراءة؛ فذهنها مشوش ومرضوض، وكأنها تعاني من ارتجاج دماغ، ولا همة لها على الرياضة سوى التسكع خاصةً في الأسواق الأكثر شعبيةً وفقرًا.

تعرف أنها حين سترجع إلى اللاذقية ستعاني معاناةً من نوع آخر، معاناة الذل كما تسميها: انقطاع الكهرباء والماء، وانهيار الليرة السورية، واليأس المرتشح في وجوه الناس، وانغلاق كل إنسان في قوقعته، والفراغ الذي تحاول ملأه وسحقه بتدخين الأركيلة مع شابةٍ في عمر ابنتها روحها مختنقة بسبب الحجاب الذي فرضه عليها أهلها.

كانت تحب تلك الشابة كثيرًا، وتدعمها معنويًّا، وتحاول أن تساعدها ألا تتأزم كثيرًا بموضوع الحجاب، لكن الصبية وضعت ذات يوم صورتها على الفيس بوك تلبس الحجاب وتُمسك مُجففًا الشعر وتقول: أجفف حجابي. كانت تلك الصورة رائعةً ومذهلةً، وتعبر بسخرية بالغة عن قمة ألمها ورفضها للحجاب.

أكثر ما كانت تحب أن تلتقي الشباب وتحس بألمهم وانسداد الأفق أمامهم، كانوا ملاذها وأهم من يدعمها نفسيًّا، ولكن أي منهم لم يخطر بباله أو يعتقد أنها هشة ويائسة في أعماقها، كانت بالنسبة لهم الكاتبة المشهورة بجرأتها وشجاعتها، يستشيرونها ويحكون لها مشكلاتهم.

كم مرةٍ شعرت أنها تخدعهم! وأنها تود أن تعترف لهم بأنها هشة وضعيفة ويُغويها الانتحار! تتخيل نظراتهم المذعورة حين ستعترف أمامهم أنه منذ بداية الموت والدمار في سوريا صار الانتحار يُغويها، لكنها تعرف أنها لن تنتحر خجلاً، والأهمّ كي لا تترك للشامتِين فرصةً للشماتة، وكي لا تطعن قلب ابنتها بسكين الألم.

رُبما لم تكن دقيقةً في استعمالها عبارة غواية الانتحار، بل كانت تريد أن تكون معهم وإلى صفهم أحبائها الشبان الذين يموتون كل يوم، ومئات المجازر بحق الأطفال خاصةً.

تذكر يوم عرضت الفضائيات صور مجزرة أطفال الحولة، كيف وجدت نفسها تتمدد على السجادة وتُغمض عينيها كما لو أنها نائمة قربهم، نائمة أو ميتة لا فرق، ميلها إلى الانتحار ما هو إلا رغبة أن تكون على الضفة الأخرى من حياة أحبائها.

متسكعة في الثامنة مساءً بشوارع باريس، تمر بمحاذاة المحلات الأنيقة، وتتأمل الحشد من الرجال والنساء حتى المراهقين يشربون النبيذ والبيرة، وهي -كي تقتصد في مصروفها- تشتري زجاجة نبيذ من محلات نيكولا، النبيذ الذي تشتريه مغربي الصنع رائع المذاق، تصبّ لنفسها كأسًا وتقضم اللوز المالح معه وتحس بالموت، الموت.

لا يُمكن للنبيذ أن يعطيك نشوة وروحك مطحونة من الألم كزجاج مطحون، تذكرتْ أن أحد أصدقائها لديه ديوان شعر بعنوان (زجاج مطحون)، وأول ما قرأته أحست أنه يصف قلبها.

أين وطني؟ لا باريس تخصني، ولا سوريا تهتم للأحياء الذين صاروا أقرب إلى الأموات، ومع ذلك تسمي (ويسمون) تعاقب الأيام بالحياة. أية حياة هذه!

قبل أن تنعطف وتدخل مدخل عيادة أختها (منزلها)، حانت منها التفاتة لتجد أسرةً من: أم شابة، وزوجها، وبينهما ثلاثة أطفال نائمون.. وغطاء قذر يغطيهم. نظرت في ساعتها لتحسب كم من الوقت يلزمها لتغرق في النوم بمساعدة الدواء المنوم.

***

بداية النهاية.. أو نهاية البداية

بعد شهر تمامًا سوف تحصل على بطاقة الإقامة الجديدة، وسترجع إلى سوريا، إلى لاذقيتها الحبيبة، لكن ثمة ضباب في ذهنها؛ فهي لا تعرف كيف تحدد: هل ترْك فرنسا هو نهاية مرحلة، أم بداية مرحلة جديدة في اللاذقية؟

تعرف أنها ستشتاق إلى أشياء معينة في باريس وليس إلى أشخاص، ستشتاق إلى ذلك الشعور بالالتحام والمودة في المقاهي مع ناس من مختلف الجنسيات. وستتذكر كم كانت تضحك في سرها من كمبيوترها العملاق نسبيًّا للكمبيوترات الحديثة الرقيقة والخفيفة.

ستحن إلى النادل الذي هو من جنوب إفريقيا، والذي يعمل في ستار باركس كيف كان يسألها عن اسمها ليكتبه على الكأس الورقية، ستشتاق إلى حريق قهوة ستار باركس، وستشكره على مساعدتها في نعمة تبديد الوقت.

ستشتاق إلى الصديق الغريب الذي جمعتها به صدفة في مقهى، وكيف حكى لها أنه يعيش من سرقة الطعام من الدكاكين، وكيف تطور الحقد معه إلى درجة أنه صار يدخل محلات الألبسة الفاخرة، حيث سعر القميص لا يقل عن (500) يورو، ويستغل انشغال البائع مع الزبائن ويبدأ بتمزيق الألبسة الأنيقة بمقص رفيع يدسّه دومًا في

جيبه، يُشعره ذلك بمتعة غريبة، متعة الانتقام، كأنه يريد أن ينتقم من ظلم غير محدد المعالم تعرَّض له.

كم شغلها هذا الشاب وكم فكرت به، ماذا لو ضبطه صاحب المحل وطلب الشرطة؟ سيُسجن أو يُرحَّل من البلد، لكنه جائع جائع وناقم من ظلم الحياة.

أول ما ستضع في حقيبة سفرها البنطال الممزق عند مؤخرتها بشكل مستقيم وكبير وعرضي، لكن الكولون الأسود الذي تلبسه تحته يغطي التمزق، إضافة إلى الجاكيت الطويلة.

لا يمكنها خداع نفسها؛ فهي تحس بالقلق والخوف من رجوعها إلى اللاذقية، لن يكون أحد باستقبالها سوى السائق الذي سيقلّها مباشرةً من مطار بيروت إلى اللاذقية، وهناك يجب أن تخدم نفسها بنفسها، صحيح لديها أصدقاء سينتظرونها ولن يتأخروا عن مساعدتها، لكن إحساسها بالوحشة والغبار المتراكم طوال أشهر غيابها سوف يُشعرانها بالقلق.

لن تنسى أبدًا الزوادة من الحبوب المنومة والمهدئة التي ستأخذ الكثير منها إلى اللاذقية، الدواء المنوم والمهدئ هما الصديق عند الضيق، ومعظم أصدقائها يستعملونه، لكن قلبها يحدّثها هذه المرة أن اللاذقية ستكون مختلفة.

اللاذقية فقدت روحها كسكانها، لم تعد قادرةً أن تبعثَ البهجة والحيوية في نفوس سكانها، خاصةً وقد تضاعف عددهم بسبب النازحين، ستلتقي أصدقاءها بالتأكيد وسيسعدونها جدًّا؛ لأن روحهم واحدة في ألمها وألمها همومهم نفسها في هجرة أولادهم وغربتهم، وفي غلاء المعيشة والخوف اليومي والذل اليومي.

ستعرف أن هضابًا من القمامة بانتظارهـــا، وستشـــمئزّ منـــها كالعادة، لكنها أمر واقع، هي اختارت هذا المصير، وربما لم تختره، بل ثمة حبل سري يستحيل أن ينقطع بينها وبين اللاذقية.

تعرف نوب الذعر التي ستوقظها من عز نومهـــا في اللاذقيـــة، فتقوم من سريرها قلبها يخفق كمضخة، وتستنجد بكـــل الوجـــوه الحبيبة لتدعمها، لكنها تجد نفسها في النهاية واقفةً حافيةً في الظـــلام وصوت جعير المولدات يصمّ أذنيها ويجعل الجدران تهتز.. ســـتلمس بحنان بالغ ظرف الحبوب المنومة وتبتلع حبتين وربما أكثر، وتنتظـــر رحمة النوم.

هل تطابقت اللاذقية مع باريس؟ هل تشابهتا؟ لم تعُدْ أيٌّ منهما ملاذَها، باريس قدمت لها التسكع والتفكير والأفق الحـــر والكتابـــة والوحدة المثالية، أما اللاذقية فقدمت لها حياةً بائسةً وصـــعبةً لكـــن زمنها مشحون بالحنان، الأمكنة أرواح والوجـــوه أرواح، وهـــي لا تستطيع أن تعيش خارج مدينتها.

يا له من مبدع عبقري إدوارد سعيد حين كتب سيرته الذاتيـــة الرائعة خارج المكان!

الآن تشعر تمامًا ما معنى «خارج المكان»، ولن تبدد الســـهرات الحميمة مع الأصدقاء شعورها بالنبذ والتخلي، ثمة صديقات فتـــرت علاقتها بهن بسبب اليأس والإحباط، وربما لغلاء المعيشة؛ إذ يتطلـــب أي عشاء في مطعم مبالغ كبيرة، وهن بالكاد يؤمّنّ الخبـــز اليـــومي لأطفالهن.

تشتري هدايا لأحدٍ من الأصدقاء؛ لأنها لا تملك المـــال الزائـــد لشراء هدايا، رغم أنها تتمنى لو تسعدهم بهداياها، لكن إنهـــاء عقـــد

المجلة المتحيزة التي سجنتها في مواضيع الأسرة ومنعتها علنًا من الكتابة عن الوجع السوري جعل إمكاناتها المادية تقلّ.

ستعوّض أصدقاءها بدعوتهم إلى عشاء فاخر في بيتها، وسينتهي العشاء بجلي كومة من الصحون والكؤوس ووضع بقايا الطعام في البراد فجرًا، لكنها ستكون سعيدة، أتكون سعيدة حقًّا؟ أم أنها تمثل الحياة مُوهمة نفسها أنها تعيشها؟ أجل، هذه هي الحقيقة التي يجب أن تمتلك الجرأة لتعترف بها بأنها تمثل الحياة ولا تعيشها، كممثل يتقن دوره لدرجة أن يُقنع الجمهور أنه لا يمثل بل يعيش الحقيقة.

في الأيام السابقة لسفرها لم تعد تشعر بشيء، كما لو أن إنسانة أخرى ستسافر نيابةً عنها، فكرت وهي تضع ثيابها الصيفية والشتوية معًا في الحقيبة بأنها لم تلبس أي شيء منها، بل بقيت بالبنطال الأسود الممزق، وبالكنزة الفستقية اللون التي صُبغت ياقتها بالأسود بسبب البودرة السوداء التي ترشها على المنطقة الأمامية من فروة رأسها حيث شعرها خفَّ كثيرًا.

فكرت أن أول ما ستفعله حين تصل إلى اللاذقية إن لم يوقفها فرع أمن الدولة لتهمةٍ ما، هو الاتصال بصديقها مهندس الكهرباء كي يوصل لها البطارية؛ لأن الكهرباء تنقطع كثيرًا، ثم ستتصل بالشخص الذي يصلح التلفزيون؛ لأن معظم المحطات تكون قد اختفت بغيابها، ثم ستستنجد بشهيدة، وهي اسم على مسمى لتنظف بيتها.

شهيدة من قرية بسيطة على طريق حلب، حاصلة على الشهادة الثانوية، وكان أملها أن تدرس صحافة، لكن الأمر انتهى بها أن تعمل مُستخدمةً تنظف المراحيض الفاحشة في القذارة في إحدى مؤسسات الدولة.

أخو شهيدة شهيد، لم يقبضوا من الدولة مليون ليرة سورية كما وعدوهم؛ لأن المسؤولين الذين راجعوهم قالوا لهم: إن الدولة في عجز مالي بسبب الزيادة الكبيرة في أعداد الشهداء، وإنها لم يعد بإمكانها أن تدفع مليون ليرة لأسرة كل شهيد، لكن يحق لأقرباء أسرة الشهيد أن ينحشروا في باصات الدولة مجانًا، أي: أن يُوفروا عشرين ليرة سورية.

شهيدة أصبحت هيكلاً عظميًّا من الجوع؛ فالخبز والشاي أساس طعامها لا يسدان جوع معدتها، ويوم وضعت لها فطورًا، بيضتين مقليتين، صرختْ بدهشة: بيض.. بيض مقلي!! هل تعرفين أن سعر البيضة أربعون ليرةً أو خمسون. قالت لها: صحتَيْن ألفَ صحةٍ.. ماذا تفطرين إذًا؟ قالت لها وهي تضحك وعظام حنكها تشف من جلدها الجاف المشقق رغم أنها لم تُكمل الثلاثين: والله أفطر رغيفَ خبزٍ، وبالكاد ألوحه بالزيت مع كأس من الشاي.

كان عظم وركها يكاد يشق البنطال لبروزه ونحولها، لكن شهيدة كانت غريبة الأطوار كأنها مفطورة على السعادة، فرغم كل المآسي التي تعيشها، ورغم العمل المقرف الشاق -حيث تنظف كل يوم أكثر من عشرين مرحاضًا لمؤسسة الدولة، ورغم عملها الشاق في تنظيف بيتي المهجور منذ سنوات- كانت تعمل وهي تُغني، وتضحك من قلبها حين أعلق على خبرٍ ما تعليقًا يُضحكها.

وكانت شهيدة مولعةً بالعطر، تعشق العطور، وتطلب مني في كل سفر أن أُحضر لها هديةً زجاجةَ عطر، لعلها كانت تشعر أنها تبدد رائحة الفقر، برائحة العطر.. كم كنت أحسدها!

وكادت تموت ذات يوم من الضحك بدل أن تموت من البكاء حين سألتْها: ألا تعرفين مسؤولاً مهمًّا في الدولة كي يعطونا تعويض أخي الشهيد؟ كم أحسد هؤلاء الذين استشهدوا باكرًا؛ فقد قبض أهلهم مليون ليرةٍ، أما الآن وحشد الشهداء كبير جدًّا فلم تعُدْ الدولة بقادرةٍ أن تعطي كل عائلة مليون ليرة.

خطر لي لو أسألها إن كانت تثق بالدولة وتُصدّقها، لكنني أشفقتُ عليها فلم أشأ أن أشوّشها، لن تزيد مساحة وعيها وإدراكها كي لا تزيد ألمها، لتبقى شهيدة كما هي تعيش على الخبز والشاي وهي أشبه بهيكل عظمي، ولتغني وهي تعمل، ولتفرح بزجاجة العطر من أرخص الأنواع.. لو لم تكن بتلك الروح لماتت من القهر.

يلتمع بيتها بالنظافة بعد أن تنظفه شهيدة، ترش العطر وتقول لها: «شكرًا يا حبيب»، تعبير صار دارجًا في سوريا كلها.

أجرّ الحقيبة الثقيلة، احتمالُ أن أدفع ثمن الوزن الزائد واردٌ جدًّا، ليس في حقيبتها سوى هدية واحدة، زجاجة عطر لشهيدة، كانت قد تعجبت أنها لم تردّ على الرسالة التي أرسلتها إليها عبر الهاتف بأنها تريدها أن تأتي اليوم الفلاني، ولم يخطر ببالها أن تتصل بها لانشغالها بزحمة السفر، ولقلقها المعتاد هل ثمة احتمال أن يوقفها الأمن على الحدود اللبنانية السورية بتهمةٍ ما.

ببرود ودعت باريس، ولم تكن أكثر ثقةً من مشاعرها في تلك اللحظة بأنها يستحيل أن تتأقلم مع باريس وتعيش فيها.

اتصلت بها ابنتها من بريطانيا لتطمئن عليها، قاومت دموعها وقالت: كل شيء تمام. سألت: ألم تدفعي زيادةً على الوزن الزائد؟ قالت: لا أبدًا كانوا كرماء، تصوري وزن الشنطة (30) كغ لكنهم

غضوا الطرف. أكدت لها أن تتصل بها حال عبورها الحدود اللبنانية السورية، وطمأنتها ابنتها أنها تعرف أسماء وأرقام هواتف الضباط الذين سينقذونها من أية ورطة محتملة.

دومًا السفر يذكرها بالعبور إلى العالم الآخر، عالم ما بعد الحياة، ترى ألا يُعقل أن نكون نحن في الجحيم، وهل كل تلك الأجرام السماوية خالية من أشكال متنوعة من الحياة والمخلوقات.

وقفت في الصف لتفتيش الحقائب، لمحت زجاجة العطر الخاصة بشهيدة، هذه المرة لم تشترِ لها عطرًا رخيصًا، إحساس غامض جعلها تؤمن أن شهيدة إنسانة عظيمة وعارٌ عليها أن تهديها عطرًا رخيصًا، اشترت لها عطر (الحياة جميلة)، العطر الذي تُروِّج له الممثلة الأميركية ذات الابتسامة الساحرة جوليا روبرتس.. تخيلت فرحة شهيدة الهائلة.

كم تكره السفر! تعبٌ يهدّها هدًّا؛ إذ لم تغفُ لحظةً في اليوم السابق لسفرها.

في الطائرة أحست أنها كيان غريب، ليست إنسانًا، بل تنتمي إلى فصيلة أخرى من الأحياء، وتمنت لو تحط الطائرة في كوكب آخر غير الأرض، في كوكب يسكنه الشهداء وأطفال المجازر السورية، وخاصةً أطفال مجزرة الحولة التي جعلتها يومها تلطم رأسها في الحائط حتى سال الدم من جبهتها.. كانت مؤمنةً أن ثمة كوكبًا للشهداء، وأنها تريد أن تكون معهم بكل روحها وكيانها مهما كان شكل الحياة فيها.

هل التعب يولد الأفكار الغريبة؟ ربما! لكنّ أملها خاب؛ فها هو الضابط يقلب صفحات جواز سفرها، ويقول لها بلطف: الحمد لله على سلامتك. السائق الذي اعتادت أن ينتظرها لوَّح لها بيده:

مرحبًا، وطوال طريق العودة كان يخبرها عن تدهور الحياة في سوريا واشتداد بؤسها، وأنه لا يكاد يمرّ يوم إلا وعائلة تغادر سوريا.

وصلت بيتها الثامنة مساءً، الكهرباء مقطوعة، طلبت من جارها الثريّ الذي اشترى مولدةً أن يشغلها لها كي تتمكن من نقل حقائبها.. بدا البيت موحشًا لدرجةٍ أفزعتها، بدا أشبه ببيت الأشباح رغم أنها لا تؤمن ببيوت الأشباح، بالكاد رتبت سريرها ونامت بعمق.

أفاقت على شعور جديد ليست متأكدةً إن كان يمكن أن تسميه شعورًا بالسعادة، كانت تحدث نفسها وسط الغبار الذي غطّى كل أساس البيت بطبقة رمادية: هل أنا سعيدة؟

والتمعت بذهنها صورة الضباب الصباحي الرطب المنعش في باريس وهي تحمل على ظهرها الحقيبة الخاصة بالكمبيوتر، ثم تجلس في مقهى وتتأمل الشرطي شابًّا متأبطًا بندقيةً تكاد تكون بطولِه، وتطلب القهوة مع الماء من النادلة الشابة، ثم تبدأ بالكتابة غير عارفة ماذا تكتب؟ رواية ذاتية، أم توهم نفسها أنها تكتب رواية؛ لأن من يعيش في باريس يموت إن لم يكتب؟

لكن باريس ساعدتها في كتابة صفحة تلو أخرى، وقد يكون ما كتبته رواية، خاصة أننا نعيش في زمن تلاشت فيه التصنيفات، وأصبح للرواية أنماط وأشكال عديدة، تلقت اتصالات من صديقاتها وأصدقائها، أسعدتها لهفتهم للقائها، ولكنها قالت لهم: بيتي الآن في حالة يرثى لها، ستأتون بعد أن تنظف شهيدة البيت.

***

شهيدة

اتصلت بشهيدة مرارًا لتطلب منها أن تنظف البيت، ولتعطيَها العطر الفاخر الذي ستشعر حين ترشه أنها لا تختلف بشيء عن جوليا روبرتس، هل غيرتْ رقم هاتفها، أم باعته لأنها ما عادت قادرةً على دفع الفاتورة.

أخيرًا اضطرت أن تتصل بالرقم الأرضي لأختها المتزوجة، وعلمت أن شهيدة ماتت. هل مرضت؟ سألت وقلبها تجمّد في مكانه، والجواب نفسه: شهيدة ماتت. سألت: هل مرضتْ؟ الجواب صمتٌ مريبٌ، ثم صوتُ صراخٍ مزّق طبلة أذنها: شهيدة انتحرت.

كانت الشابة ذات الثلاثة عشر عامًا قد انفجرت وباحت بالحقيقة؛ لأنها كانت تحب شهيدة جدًّا. سألت كالمعتوهة: ولماذا انتحرت؟ كانت طباعها مرحةً وسعيدةً، وكانت تعمل وهي تُغني.. كيف انتحرت؟! لا جواب، لكن الصبية خطفت السماعة من يد أمها وقالت بصوت مجروح ومختنق بالدموع: قطعت شرايين معصمها بغطاء علبة سردين وهي تنظف أحد المراحيض البالغة القذارة كالعادة.

دارت بي الدنيا وصرتُ أهلوس: الحياة حلوة يا شهيدة، الحياة حلوة اسألي جوليا روبرتس، لقد أحضرت لك عطرها،

ستتساوين معها يا شهيدة بالعطر والفرح، سيزداد غناؤك متعةً وأنت متعطرة بالعطر الفاخر.

ترى، بمَ أحسستِ يا شهيدة حتى انتحرتِ في مرحاض مقرف من القذارة؟ حيث البراز يطفو من حوافه كلها، ووظيفتك تنظيفه! يومك يبدأ مع الخراء وينتهي معه، والدولة لم تعطِكم دم أخيكِ الشهيد مليون ليرة؛ لأنها أفلست و لم يعُدْ لديها مال.

لكنكِ كنت تغنين من قلبك غناءً حقيقيًّا صافيًا نابعًا من روح محبة للحياة، فأي شيء هزمكِ يا شهيدة؟ هل تلبَّسك اسمك وأردتِ أن تكوني اسمًا على مسمّى. لا أصدق أنك غبت وأنك ميتة في ذلك الكوكب الذي حلمت به وأنا في الطائرة.

لكن بعد أيام من وعيي انتحار شهيدة بدأت أحس بالعار بأن طوال الأشهر التي قضيتُها في باريس كان الانتحار يُشكل غوايةً لي، وبأن ما يتحمّله السوري يفوق طاقته ويغلب حب الحياة لديه.

لم يقبل الشيخ أن يصلي على جثة شهيدة لأنها مجرمة، ولأن قتل النفس جريمة؛ فالله يعطي والله يأخذ.

وحين طلبتُ من أختها أن تصحبني إلى قبر شهيدة الذي كان أشبه بتلة بائسة فقيرة، لا زهرة ولا وردة عليها، وجدتني أفتح زجاجة العطر (الحياة جميلة) وأرشّها على قبرها. أزعم أن وجه شهيدة تجسد مكتملاً في تلك اللحظة وشكرتني وضحكت ضحكتها المنبثقة من قلبها، ثم نظرت إليّ بعينيها العسليتين الصافيتين وغشاوةٌ من دمع تغلفهما، وسألتني: هل الحياة جميلة حقًّا؟

وعدتُها أنني لن أترك بعد الآن للانتحار أن يُغويني، وأنني سأعيش إكرامًا لها؛ لأنها أهدتني موتَها -كما أُومن وأعتقد-؛ كي

تحررني من غواية الانتحار، وكي يكون حبُّ الوطن الحبَّ الـــذي لا يهزمه كل شياطين العالم وأسلحتهم الفتاكة.

الشحاذة

هيفاء بيطار

صارت تمشي كلَّ صباح بخطًا رتيبةٍ بطيئةٍ متأملة بعينين جامدتين ذاهلتين صور الشهداء القتلى.. كل يوم المزيد والمزيد من الشهداء، يصيبها القتل بالانبهار، لكنه انبهار من نوع خاص.

وبدأت فكرة الانتحار تتسلل كاللص إلى عقلها، كما لو أنها من إفرازات الموت المتواصل لشبان سوريا، كما لو أنهم يدعونها لتشاركهم مصيرهم، كما لو أنهم يقولون لها: لماذا أنت حية ونحن متنا، والأجدر أن يموت الكبار وتتفتح براعم الصبا؟!

لم تفكر يومًا بالانتحار، وكانت تتعجب كيف تسللت تلك الفكرة إلى رأسها وأخذت تتمدد مُستعمرةً خلايا دماغها، حتى ملامحها تغيرت؛ إذ أصبحت متجهمةً بعد أن كان الجميع يمتدح وجهها الصبوح وابتساماتها المُشعة من قلبها.

لم تعرف كيف ستؤثر بها الحرب والقتل، لكنها كانت مستسلمةً ومذعورةً في الوقت نفسه، وأكثر ما كان يُقلقها ويُخيفها إدراكها أو حدسها أنها لم تعد تملك الإرادة الكافية للصمود في وجه الآثار المدمرة للحرب، سيان عندها النظام أم المعارضة، لا تشعر أن أحدًا منهما يمثلها أو يمثل الشعب السوري، صارت فجأةً تعاني من نوب عاصفة من البكاء، وتنبهر من قدرة غدتها الدمعية على ذرف الدموع.

مكتبة نوميديا 43
Telegram@ Numidia_Library

ISBN: 978-614-02-1531-3
9 786140 215313

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com